للخطايا ثمن

محمد أبو خلف الله الجعفري

اسم الكتاب : للخطايا ثمن (رواية)
اسم الكاتب : محمد أبو خلف الله الجعفري
رقم الإيداع : ٢٠١٥/١٣٧٧٢
الترقيم الدولي : 9789776527041
الطبعة الأولى : ٢٠١٥
مراجعة لغوية ، وإخراج : هيام فهيم
صادر عن : مؤسسة زحمة كُتّاب للثقافة والنشر
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة

www.za7ma-kotab.com
www.facebook.com/za7ma
www.facebook.com/za7makotab
za7ma-kotab@hotmail.com

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمؤسسة زحمة كُتّاب للثقافة والنشر
المشهرة قانونا بسجل تجاريّ رقم / ٨٤٤٨٦

حين تغرب الشمس قد يغرب معها

الأمان .. الوفاء .. الفضيلة

وأشياء كثيرة ...

الإهداء

إلى كل أنثى تعتز بكرامتها، وترفع هامتها، وتأنف الذل والانكسار، وترفض الضياع والعار، وتحب الحياة في عز وشموخ ..

أقدم إليكِ أولى رواياتي ..

محمد .. محمد أبو خلف الله الجعفري

الندم دليل براءة

لا يندم من كان خؤونا بالطبع

لا ترميه الأشواك

لا تخز الأشواك وتوجع

غير المتورط في السقطة!

من منا لم يسقط مرة ؟!

من منا من غير خطيئة ؟!

مرحى ... مرحى ...

أمي الخاطئة بريئة

المبدع / نجيب سرور

بدأت الشمس تهجر المكان وتجر أشعتها نحو الغروب وكأن الليل برياحه الخماسينية يتعجل المجيئ ..

البشـــر في كل مكـان منتشرون، يتهامسون في حلقـات شبه دائرية .. ثم بدا صـوت ناحب، هائع دوي صخبـه مستفحلًا حتى استرعى انتباه أهل القرية جميعهم.

القرية التي إن حدقت النظر تجاهها رأيت بعض البيوت الشاخصة أو قد يَمْثُلُ أمامـك بعض من الأكـواخ التي تشبه الكهـوف الغائـرة، وكأنـها حظائـر تبعث الشفقـة لسكنى الحيوان فيها، ولكن قاطنيها وجدوا داخلها الملاذ وإن كانت على هذا الوصف الذي ظل الطابع المسيطر على بعض من القرى التي ليست بالقليلة في فترات كثيرة من الواقع المصري.

أنا لا أزعم هذا، ولا آتي به من بُنيِّات خيالي، إنما كان ذلك الوصف الذي وصفت أقرب لواقع مريـر عاشتـــه وتعايشت معه قرى مصر في شتى ربوعها وأحيائها، ولا أبالغ إن قلت .. وكذلك مدنها، في حواريها وأزقتها وعشوائياتها المؤلمة، إذ أن التقسيم الطبقي في المجتمع المصـري والنظرة الدونيـة كانا وما زالا قائميـن بين أطياف المجتمع، ولا سبيل للخروج من ذلك، فهو سبـب تخلفنا وانحدار مجتمعنا، فكم وارى الفقر مواهـب جمة لو أنها استعـاضت عن فقرها وحياتها البائسـة شيئًا من

كرامة العيش، لكانت في طليعة الصفوة، ولانطلقت في ميادين الشهرة ولنفعت مجتمعها أيما نفع، ولكن أنى لها الفرصة وقد جسم على صدر الوطن أرباب المصالح، وأنصاف المواهب المتسلقون، وذوو النفوذ الذين لا يخافون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فئة ضلت طريقها واستباحت لنفسها الظلم والنهب دون تمييز، وكأنها بعيدة عن الحساب بل وكأنها فوق الحساب نفسه.

هذه القرية التي مد البؤس إلى بيوتاتها ذراعيه فاحتضنها إلى حد التلازم، يتاخم أكواخها الحقيرة بيوتًا اتخذت من الطوب اللبن صفوفًا لحجراتها، مما مكّن لها اكتمال البناء وتناسق البنيان إلى حد كبير، بيد أن حال سكان تلك الأكواخ - أو البيوت كما يروق لسكانها التسمية - والتي تستأثر جل القرية يرثى لها، ومعيشتهم أقل ما توصف بالوضاعة وخشونة العيش الذي يغشاه الذل والحَزَن ..

أناس ثيابهم رثة جار عليها الزمان، قد نقموا معيشتهم الصعبة على حد تعبيراتهم المهلكة الموجعة للناظر الرائي لأحوالهم.

معيشة لا تختلف كثيرًا عن غيرها في قرى مصر وبعض ربوعها في هذه الفترة من الزمان، والذي أراه ينحني نحو بدايات منتصف القرن الماضي، غير

أنها تمثل أسوأ ما تراه العين من بؤس وشقاء وضيق في الحياة .

وحتى لا أغوص كثيرًا وأسترسل طويلًا في الحديث عن وصف القرية وساكنيها، لأنني أعي جيدًا أن القارئ بخياله الآن يسبح، سائلني أن أكبح جماح القلم وأن أنطوي قليلًا عن وصف القرية وأهلها، لأنه بملكة فكره يريد أن يعرف ما بال الصوت الذي استفحل في القرية .. ما مصدره ؟ ومن أصدره ؟

لكن كما كان - عزيزي القارئ - لهذا الصوت من وقع في نفوس من وعاه، كذلك كان له صدى خفي في واقع نفسي، لأنني من الممكن أن أذهب بك بعيدًا إلى حيث أريد، لأنه من الصعب أن أشبع نهمك وأرضي رغباتك الآن قبل أن أذهب بك إلى الوراء قليلًا بعض شيء ..

حيث يجلس رضاني ..

أعلم - عزيزي القارئ - أنك الآن تضحك أو قد تبدي الدهشة لما وقع في نفسك من عجب الاسم، لكن يجب على أن ألفت نظرك لزامًا أن تعطي لنفسك شيئًا من التؤدة والتريث، كي تؤثر الضحك قليلًا وتمنع نفسك الدهشة، حتى تعرف رضاني عن قرب.

من رضاني ؟

إنه رجل على مشارف الكهولة، نحا به العمر نحو الستين بعام أو عامين، بارز عظمتي الوجنتين، طويل القامة، نحيف الجسد، يعلو بشرته البياض الذي أرهقه كد البؤس ومشقة الأعوام، على وجه حاد التقاسيم، كث اللحية، ذو عينين عسليتين لامعتين بشكل ملحوظ، أسمته أمه بهذا الاسم وفاء لنذر عليها لأن الله كتب لها الرضا بعد طول مكث وانتظار لمولود تقر به عينها، فهو أول فرحة لها بعد تسعة أعوام انتظارًا له، فكأن الله أرضاها بما يسعد قلبها، فوفَّتْ بنذرها في التسمية مع الواهب الذى وهبها إياه.

أما هيئته وطبيعة معيشته فإن كان حال القرية كما كان الوصف، فلك إذن أن تتخيل رضانى كما تشاء، وإن كان لي من الملاحظة شيء قليل حيث إن رضاني الذي يمثل أضحوكة الاسم في نفس الوقت يمثل تعاسة الذات حيث يقطن وأسرته في بيت أشبه بحفرة وسط جبل يعلوها ذاك الطين المتراص الذي هو نتاج الطمي مع التبن والقش وروث البهائم، ثم يسوى في شكل قطع تصنع على هيئة ما ويسمى جالوسا، ثم يرص بأطر غير متناسقة حتى تعلو البناية ارتفاعًا ليس بالجم وما أن يتم لها ذلك الارتفاع يؤتى بجريد النخل غير منزوع

السعف ويوضع أعلى هذا الارتفاع سقف له حتى يقي من تحته وأنى له أن يقيه، ويصطلح ساكنوه الكثرة تسميته (بناء بالطوف).

يجلس وصبيته الخمس مع زوجته أمام دارهم، أو قل كوخهم كفئران نافقة وجدت بغيتها في هذا الفضاء الرحب، يتسامرون في حلقة صغيرة، فيقص الأب أهازيجه، ويفرج أساريره على مسامع أبنائه الصغار تسلية منه لهم ومَن يعي منهم أهازيجه، يحملق في وجه أخيه استغرابًا لا استحسانًا لمحكاه ..

في ذلك الوقت، تجلس زوجته سعيدة، حبيسة الوجدان وهي بهيئتها، تراها وقد ارتسم على وجهها غابر الزمان، مع مسحة جمال ظاهرة على جسد بض ممتلئ امتلاء يدعو للفتنة، خاصة مع طول القامة المتناسق في حدود اللطف الذي يجعل أهل القرية يرمونها بسهام النظرة المتوالية، وكأنها موضع الجمال أو أن الجمال وضع عندها، وهذا يتضح من قسمات وجهها الدائري الذي تتوسطه عينان واسعتان جميلتان إلى حد كبير، يميلان إلى السواد المتقن لا سيما وأنها ذات بشرة بيضاء، وفم ينحو وسعًا في حدود الوسامة ودقة الرسم.

تنعي في شرود حظها وتعاسة رفيق عمرها وحرمان أبناءها ..

وبين كل ذلك تخرج ضحكة عالية من طنطاوي - أوسط الأبناء، تجعل الأم تنفض من ثباتها، وتفيق من شرودها وتتظاهر بأنها تدري ما يقولون وتعرف علام يضحكون ؟

ولكن رضاني يعي أن زوجته ما كلَّها إلا الحرمان، إلى الحد الذي جعلها لم تقرب طعام العشاء، ولم ترتشف الماء، إذ كيف يكون حال الماء في بطون خاوية تنتظر الهاوية حرمانًا لا بخلًا وبؤسًا لا شحًا.

يخرج رضاني بكلماته الهاجنة العابسة قصدًا مع زوجته، الضعيفة الضاحكة عتهًا مع غيرها، حيث اعتاد ألا يضع الكلم في مواضعه، ولا يزن الكلام بميزان العقل، وبالأخص مع رفيقة العمر التي تعلم مدى حرصه على كن البغض، وعدم إظهار الكره إلا في أحيان قليلة، وهي تعودت على الثورة مع كلماته التي ينثرها فوه بل وتتطلع أحيانًا في خيالها إلى كل من ترى فيه ما تمنته في رفيق الدرب ..

هذا ما جعلها يومًا تقدم على أن تخطأ خطأ العار غير نادمة عليه في حينه، وإن أورثها ذلك ذل النفس ومكيدة القلب، إذ هي تعلم أنها ما أقدمت عليه إلا لضعف الأنثى حينما تتذكر أنوثتها مع بئر من حرمان الزمن وحاجة النفس، أيًا ما كانت حاجتها.

تجلس يومًا وهو يلاحقها بنظراته التي تعلم مغزاها، وبكلامه الذي إن سمعته أطلقت لذهنك العنان وغيرت من نظرتك لهذا المهندم المهذب، راجح العقل في مخيلة كل من يراه أو اختلط به لكنه يعلم أن كلامه إليها لا يسمعه أحد، ولن يعيه صغار، وجزمًا لن يتطرق إلى أذن زوج يكد طوال اليوم، حيث الكلام عند من يريده يخيب مسعاه.

وعلى كل كلامه يومًا أصاب فاتنته .. فكان له ما أراد.

انتظر ابتسامة الرضا منها طويلًا، أحس حرمانها وفهم على حين احتياجها، فهنأ نفسه على نظراته التي أصابت مرماها، ثم طار فرحًا ليضم خلوة إلى خلواته التي كثيرًا ما تستهوي قلبه ..

واعدها بإشارة، وهي قابلته بحفاوة فاختلسا وقتًا أشبعت فيه رغبتها وهي لا تعلم أن هفوتها ستكون حتمًا كسرًا لعزتها وهدمًا لكرامتها.

أعلم عزيزي القارئ أنك قد اندمجت وغصت بكلك في هذا السرد وتشعر بانتعاشة ما تلبث أن تتلاشى سريعًا وتخلص نفسك إلى الحنين لمعرفة الصوت الذي استفحل في القرية آنفًا، ولكن لك ما أردت من حنين ولذهني وعقلي ما أراد من رواية ما يجول في الخاطر.

قد تريد أن تعرف ما بال الصبية الخمسة ؟

ما أسمائهم ؟ وكم أعمارهم ؟

فأنت لم تتعرف إلا على أوسطهم طنطاوي ذي الخمسة أعوام والذي يرتاد الخطى رويدًا نحو المستقبل الذي قد يكون في نظر الرائي لحالهم كأبيه ..

وقد تتخيل أنت أنني سوف أجعل بيده عصًا سحرية ينتشل بها أسرة رضاني من غياهب الفقر والعوز إلى أنوار الغنى وميادين الثراء ولكن لي ما أريد ..

فهذا الطفل ما هو إلا عفريت من جن الإنس، يمثل الهزل والشقاوة أيما تمثيل، وإن كان الهزل والشقاوة يتمثلان فيه ..

فقد نبغ ذهنه وفطن عقله قبل أن يكبر سنه، هذه حقيقة يؤكدها من حوله لا سيما نساء الجوار فيما بينهن حينما يرونه يسبق أقرانه بلفتة عابرة أو حركة لا يستطيع فعلها من هم أكبر منه سنًا ..

يتناقلن الحديث :

- هذا الصبي أكبر من سنه، لعله يعوض رضاني وسعيدة خيرًا ..

مبدين بذلك الشفقة والتماس الرحمة لتلك الأسرة البائسة.

وحتى لا يحيد بنا الكلام وننسى أمر الطفل، فهو يكاد ينهي عامه الخامس كيما يستقبل أيام عامه السادس أو تستقبله لياليه لينال منها أو تنال منه ..

كان كما كان حال صبية القرية، عندما يروق لهم الحال ينعمون في وقت الظهيرة بماء الترعة الكبيرة لا سيما عند ظنهم مطلع الصيف، وأنى للصيف أن يكون مجيئه؟! فما هو إلا ضاحك بموجات حامية لا تلبس حتى تختفي، وفي ذلك الوقت عند اشتداد القيظ ترى الصبية ولا شك أن طنطاوي وأخاه إبراهيم وأقرانهما يلهون ويسبحون ويتسابقون في تلك الترعة التي تبعد عن قريتهم بعدًا ليس بالقليل، كيما يكونوا في منأى عن الأنظار، وريثما يمكنون لأجسادهم البرودة الكافية التي تجعلهم في أتم السعادة، إذ هي الوسيلة الوحيدة للترفيه لديهم في ظل حالة البؤس والشقاء والحرمان التي يحياها هؤلاء الصغار.

عزيزي القارئ، أنا أزعم الآن أنك تريد أن تعرف إبراهيم ..

لكن يحلو لي الآن على غير رغبتك أن أدعك تتعرف على إبراهيم من خلال الأحداث ..

ولا تترك نفسك للحيرة أيها القارئ الحبيب، فالطفل طنطاوي لا يدع نفسه للماء كأخيه وأقرانهما، وإنما عن

كثب يلاحظ ويراقب في عجب تلك الأفعال البهلوانيـــة التي يفعلها هؤلاء الصغار، وفي شغف يريد أن يفعل فعلهم أو يلهو لهوهم، مما دفع التقليد عنده أن يحـرك قدماه نحو الماء ولكن بعيدًا بعض شيء عن عيني أخيه الذي أنساه لهوه أن أخاه الصغيـــر يجلـس إلى جـوار شجرة من أشجار الصفصاف التي يسكنها طائر اليمام بألوانه البنية الباهتة التي ينازعها شيء من الاحمرار أو الاصفرار الغامق، ويزينه حول رقبته ريش زغبي كما لو أنه طوق يتحلى به، يسكنها بأحجامه المختلفة اختلافًا ليس بالكثير وبأوكاره المتناثرة على أفرعها، حيث تشهـد أشجـار الصفصاف المتشابكـة الأفـرع المزدهـرة الأوراق جراء اتصالها بماء الترعـــة على ميلاد أفراخه وكأن تلك الأشجـار ملك لهذا الطائر وحده ولا مجال لأن ينازعه فيها أحد.

يهدل بأصواته نغمًا يعلو وينخفض يستميل به الآذان، ويشهد وصغاره على هذا الفضاء الرحب الذي يتاخـم الترعـة ويسيطـر عليها ولا يستطيع أن يبوح بسر من أسرار هذا الفضاء العريض فهو يكتفي بمجرد المشاهدة والملاحظة لكل شيء حوله، لا سيما الأقران ولهوهم وأفراحهم وأتراحهم وكأنه شاهد على كل شيء.

فها هو الآن عيناه على الطفـل طنطاوي الذي يجلـس أسفل شجـرة الصفصاف، يستظل بظلها ويأنس بهديله

أحيانًا، وإلى جواره ثياب أخيه والأقران، وتراوده نفسه أن ينعم كغيره بالماء ..

ذهب طنطاوي إلى الترعة في غفلة ممن حوله، وما أن تحسس الماء حتى أخذ يقلد الصبية كما سول له خياله الطفولي، وليته ما فعلها ولكن هذا حال القدر عندما يعمى البصر، حيث توجد حفرة تشبه البئر في ماء الترعة يعلمها الصبية، لذا تراهم لا يقربونها، ولا يمارسون الاستباق تجاهها، ولكن كيف لطفل كطنطاوي أن يدري ذلك أو أن يعلمه وإن قيل أمامه.

أخذ يقترب منها رويدًا رويدًا حتى زلت قدماه فيها، وما لبث أن غاص داخلها وأخيه وأقرانه في لهوهم مستمتعين برطوبة الماء ..

وبعد حين تذكر الأخ أخاه، فأخذ يصيح بصوت يغشاه الارتباك ويحدوه الذعر، وعاه من وعاه ممن حوله، والطفل قد استقر في مثواه وإبراهيم يخرج من لهوه بحثًا عن أخيه وعيناه تتفحصان المكان مرة، وتراقبان الزمان أخرى، وأقرانه معه يبحثون ولا يدرِ الجميع ما آل إليه الصغير حتى أن بدأ النهار يلم أذياله حيث الشمس تكاد أن تسقط في حجر المغيب وهي تسعى إليه في تباطئ شديد، وإبراهيم قد تغلغل الخوف والوجل إليه ..

ثم ذهب وأقرانه من خلفه إلى حيث يقطن، وعلامات الهلع والوجوم مرسومة على وجهه الصبياني، فما أن رأته سعيدة أمه ظنت أنه جاء وأخوه معه، لذا بادرته بتمتمة ارتفعت إلى حنجرة عالية من السب والضرب على التأخير، والصبي يبكي .. ليس مما آل إليه من جراء فعل أمه، إنما مما آل إليه أخوه طنطاوي من فقد لا يعلم منتهاه ..

انتظرت الأم برهة، ثم دعت ابنتها والتي لم تتعرف عليها إلى الآن أيها الحبيب، فما هي إلا قمر سمح الطلعة، مشرق الجبين، تكبر إبراهيم بأقل من العامين ولكنها تنم عن آية من آيات الجمال والروعة، وبهاء الخلقة على حداثة سنها حيث تتجلى فيها براءة الطفولة، أسمتها أمها صابرة كي تعينها على الدهر ونوائبه وخطوبه ..

دعتها أمها كيما تستطلع أمر أخيها الأصغر طنطاوي، فذهبت على وجه السرعة والإقدام إلى حيث أمرتها أمها وأخذت تنظر المكان وتبحث عن أخيها، فلم تجده إذ كيف يكون الإيجاد ؟!

وإبراهيم يبكي، ويخرج منه صوت متهدج أشبه بالحشرجة ..

طنطاوي لا أدري مكانه ولا أعلم أين هو ؟

حيث كنا ..

وما أن سمعت أمه كلامه، استنكرته ولم تدعه يكمل حشرجته، وأخذت تكيل على نفسها السباب بأقبح ما يوصف وأسوأ ما يدعى به، وفي الوقت نفسه توجه لإبراهيم ما طاوعها من سب وتوبيخ ..

ذهبت مسرعة ولسان حالها يعبر عما بداخلها من هواجس مخيفة، فهي تذكر البارحة أنها رأت في منامها رؤية مخيفة تحدثها نفسها بها الآن ..

خرجت ولا تدري بما خرجت، والناس ترقب فعلها وحينًا يشفقون على لوعتها وصياحها المضطرب ...

أما رضاني زوجها فهو في كدِّه يعمل، حيث اعتاد ألا يرجع من عمله حين يرزق إلا قبل حلول المساء بوقت قليل، إذ يعمل وآخرون في موسم حصاد القصب والذي يمتد ما بين مطلع الشتاء وحتى بزوغ شمس القيظ الحامية في رفع عيدان هذا المحصول على عربة لتنقلها إلى حيث يكون النقل وهم في سعادة متناهية ليس عن حب لما يعملون وإنما تسلية لكدهم .. يتقاذفون العبارات التي تسلِّي كدهم، ويشدون بما يُرَوِّح وَيُنْسي مشقتهم ..

يبدأ بالشدو أحدهم، ثم يستتبعه الآخرون بما مكنتهم من حفظـــه الأيام، فهو مطبـوع بالذاكـــرة إلى حد كبيـر، ولا سبيل لنسيانه.

تراني الآن وقد اشتد وطيس شمس بدايات القيظ، أري رضاني وعلى ظهره حمله من القصب، وقد قاربت العربة على الامتلاء وهو يضحك ملء فيه، ويشدو مع رفاقه بغناء من تلك الأناشيـــد التي طبعت في ذاكرتهم في ارتفاع وانخفاض للصوت حسبما يروق لهم ..

❁❁

يا بت قولي لأبوكي خليه يديكي لي
وإن مرضيش أبوكي أمك مياله لي

يا بت هاتي بوسة تحت السلم ضلام
تعالى خدلك بوسة تعبانة وعايزة أنام

يا بت قولي لأبوكي خليه يديكي لي
وإن مرضيش أبوكي إبكي واتشهوني

يا بت بياضك ديتي ولا غسيل صابون
قالتله أنا بياضي قديتي وأبوي تاجر صابون

يا بت ماشية عياقة ولا البلاص تقيل
يا واد ماشية عايقة وإيش يعملّي التقيل

جوز البت البيضا يضحك لما يميل
وجوز البت السمرا شايل ع العمة طين
شايل جالوس والتاني ويقول قليلين

يضحك الجميع ومعهم رضاني الذي لا يُمكِّنُ الضحك من شفتيه كثيرًا كغيره إلا أنه هذه المرة يفعلها لأنه قَرُبَ الوقت الذي سيملك فيه حصيلة عمله المنهك بالنسبة لسنه، وإن كان يسيرًا قياسًا على كدِّه وجهده إلا أن عقله يواسي لوعته، ويدمل جرحه، ويرفع عن كاهله عناء التفكير لأنه سيرى البسمة والسعادة في وجوه صغاره فرحين بعودته وفي كيسه الحلوى التي اعتاد أن يفرحهم بها حينما يرزق ..

فصغاره عندما يرون أن كيسه قد اكتظ ومليء بعض شيء يهرعون إليه فرحًا بقدومه، بينما عند رؤيتهم كيسه كما كان قبل خروجه ينظر بعضهم في وجه الآخر لا سيما إبراهيم وصابرة أكبر الأبناء ينظرون نظرة يأس لا من عدم الظفر بالحلوى ولكن لما سيعقب ذلك من تنغيص الليلة من قِبَل الأم بكلامها وأمثالها التي تجرح إحساس الأب، فهي تتحين الفرصة لذلك وحبذا لو كانت تخص قوت اليوم.

قد تحدثك نفسك الآن عزيزي القارئ، كيف يكون رضاني في قتر من العيش وضيق في الرزق كالذي وصفنا، ومع ذلك يعتاد أن يدخل على أولاه بتلك الحلوى التي تجعل في أنفس الصغار غامر السعادة وفي نفسك بالغ الحيرة ..

أقول إنها حلوى سوداء اللون تشبه القار وتسمى بنبوت الخفير، ولا تباع إلا بيسير اليسير من النقود والأب في قرارة نفسه يريد بل يُمنِّي نفسه ألا يحرم أبناءه ما استطاع ولو كان عن طريق نبوت الخفير.

أعلم أنني قد انثنيت قليلًا تجاه ما يفعله رضاني، ولكن لي العذر، فرضاني لحظة أوبته من كدِّه رأى الناس وقد التفوا حول مأواه الصغير الحقير في اجتماع غير معهود وأولاده، وقد انطوى كل واحد منهم في حيرة وبكاء، ومعظم الناس يتمتم بعبارات ويشير بإشارات تبرهن عن الشفقة والتعاطف مع هذه الأسرة البائسة.

أما عائلها المسكين فيقف مكانه متسمرًا، تكاد لا تحمله قدماه المنهكة مذهولًا مذعورًا وقد حدثته نفسه بمكروه قد وقع دونما أن يبادر أحدًا بالسؤال، وعيناه ترقبان المكان وكأن نفسه المعذبة قسرًا عنه لا تستجيب لحتمية الأقدار.

ينظر يمنة ويسرة إلى أن وقعت ناظريه على زوجته المكلومة التعيسة في حالها المخيفة في هيئتها، فعلم أنها فاجعة الدهر، وأن مصابه في أحد أبنائه.

وهبَّ بلسان الحال في أسى:

- مَنْ منهم ؟!

يهرع إليه أحد البشر المنتشرين أمامه، كيما يهـدأ من روعه وذعره، ويستطرد قائلًا :

- قدَّر الله وما شاء فعل يا رضاني !
هذا هو حال الدنيا !

فتنهد رضاني تنهيدة جزعة تكتنز في أعطافها حزنًا عميـقًا والدموع تغـالبه، ثم تحرَّك متثاقلًا بين الجمـع الغفير الذي أتى ليواسيـه في مصابه.

لم يكن الشخـص الذي هرع إليه ليواسيـه بالكـلام إلا الحاج رضوان البعتلي الذي يمثل رجاحة العقل وصفاء الذهـن في أعين الناس بجسده الجهم الممتلئ من أثـر النعمة، ووجهه الذي تكتنفه الحمرة التي تزين بياضه، وبشـاربه الذي يتصنع في تهذيبـه على غزارتـه كيما يتناسق مع أنفه الكبيـر، أما بيتـه فهو من بيـوت قلة تختلف كثيرًا عن تلك الأكـواخ الحقيرة التي تغلب على المكـان في هذه القريـة البائسة، وهو يملـك من الأرض بعضها ومن المكـانة والمهـابة ما يجعلـه بين النـاس مرفوع الهامة وموطن الفخار عندهم، كيف لا ؟! وهو من ذوي الأملاك القلة في قرية كهذه ..

الأمر الذي جعله يكـون من وجهـاء القريـة، وموضع تبجيل أهلها واحترامهم ..

فهم يشيرون إليه دومًا بالبنان، بيد أنه مع رجاحة عقله تطيب نفسه حد الهواية لمجالسة النساء والتقرب منهن، يسترق منهن النظرات، يتبادل معهن أحاديث الدعابة والرضا حتى تصيبه النشوة إلى حد اللذة والإعجاب ..

هذا ما دفعه يومًا لأن يكون هو الذي حاصر سعيدة بالنظرات، وهي بادلته السعادة فاستهوتهما اللذة إلى حد البهجة والرضا.

أعلم أنني جنحت قارئي العزيز على غير رغبتك، فظنك أن المناسب الآن أن تعلم ما حال رضاني بعد علمه بفقد ولده ؟

تراه الآن في كآبة قاتلة فَقَدْ فَقَدَ السند الذي يُعِدُّه مع أخيه كي يكونا الدرع الواقي لأسرته أمام أهوال الحياة ونوائبها.

تراه وقد خارت قواه وأصابه الدوار، والناس حوله يهدئون من روعه وجزعه وهو لا يلتفت لأحد ويهزو بكلام مفهوم تارة وغير مفهوم أخرى، ويندب بعبارات وألفاظ كتلك التي يتناقلها ثكالى النساء، وكأن سحائب الحزن والقهر تظلله إلى حد الإيثار له.

بدأ العويل يجوب أركان القرية في هذه الليلة الحزينة وقد اتشحت القرية بالسواد، والأم يكاد يتمزق فؤادها خاصة بعد أن جيء بالفقيد الغريق، وجُعِلَ مطروحًا

وقد أُغْمِضت عيناه وعلت وجهه تلك الصفرة التي تعلو وجوه الموتى وعلى جسده النحيف ذلك الغطاء الذي يوضع على أجساد الموتى في مثل هذه الأحوال.

أعلم أنه يدور في خلدك الآن سؤال تحتاج للإجابة عنه .. كيف يكون الطفل منطرحًا أمام الجمع وعُدَّ من عداد الموتى وهو ما يزال مفقودًا ؟

نعم، كان ذلك الفقد قبل أوبة رضاني، حيث عمَّ الخبر القرية جميعها أن الطفل قد طمس في ماء الترعة حيث شاهده الباحثون عنه في مكان فقده وقد طفا على سطح ماء الترعة بعد أن تمكن الماء من جوفه فملئت بطنه الصغيرة، وغاص في الماء حتى أن أقام فيه ردحًا لفظه الماء على القبو، فأخرجه الناس بعد أن تم لهم البحث وقد بلغوا من الجهد والعناء الكثير.

حملوه إلى حيث اجتماعهم أمام بيت أبيه وهكذا استفحل الصوت وعم العويل في كل أرجاء القرية التي اتشحت بالسواد.

مر الوقت ومضت الساعات، وقد هُيئ الطفل وتم له ما يتم للموتى من تجهيز كي يستقر في مستقره الأخير وأسرع الناس في إقدام ملحوظ وهم يحادثون أنفسهم:

- إكرام الميت دفنه يا جماعة الخير ..

دفنوا الغريق في الحفرة التي أعدت له، وبعدما فرغوا من دفنه، همَّ مَنْ همَّ بالإنصراف بعد أن قام بواجبه تجاه تلك الأسرة البائسة، وأيضًا مكث مَنْ مكث إلى جانب رضاني يواسيه في هذه الليلة المهيبة حد الكآبة، ورضاني في سكون تام تعانق روحه الهم وقد بدا عليه أن بدنه يعانده النهوض فقد كلَّه الإعياء ونال منه الجهد ما ناله ..

أما زوجته سعيدة، فهي تمكث بين جمع من النساء ودموعها تنهمر على خديها، وبين حين وحين تخرج صرخاتها الحزينة وكأن النار قد أضرمت في جسدها الفائر، والنساء اللواتي حولها كلٌ تبكي مصابها أو فاجعة استحضرتها الآن، غير أن منهن مَنْ اتخذت مجلس الحزن مرتعًا لقص ما كان من سالف الدهر من أحاديث تروق لهن ..

فالنساء كما تعلم عزيزي القارئ، وأنا بدوري أذكرك أنهن في أي مجتمع لا يختلفن كثيرًا، وبالأخص فيما يتبادلون فيه المجاملة ..

تلتمس عجيب ذلك عندهن في واجباتهم الجنائزية حيث ترى في مأتمهن عيدًا لاجتماعهن ومقابلتهن وكأنهن لن يروا أنفسهن مرة أخرى، يأتين من كل حدب وصوب حيث المجاملة تأخذ مأخذها عندهن، وهذا طبعهن وإن طبعن على غيره.

الآن وقد طال المقام برضاني وأسرته، وكأن الدنيا قد مدت له ولهم كأس الحزن على الرحب والسعة، وخطوب الحياة تقلبهم حيث تريد وهم يتعايشون معها كما لو أنهم دُمَى في يد صانعها، لا حول لهم إلا الاستسلام لها.

فرب الأسرة قد تمكنت الهموم والأسقام من جسده، ولا حيلة له، فقد كسر الوهن جسده الكهل، وعم الحزن بيته، والفقر وكأنه حكر عليه وعلى بنيه الصغار، لا يدري كيف يكون الخلاص من هذه الحال ؟!

يفكر كيف ودَّع البارحة ؟! وأني له أن يستقبل الغد ؟!

تمضي الأيام عليه والوهن والسقم يبلغان في بدنه مبلغهما، وزوجته سعيدة في حيرة من تصريف أمرها.. كيف تخاطب زوجها وهي تعلم ما ألمَّ به من خطب، كلَّ بدنه، وحني ظهره، وبدأ في طي عمره طيًا ؟!

والصبية الصغار من حولها يدفعون الحرمان بالبكاء تارة، وبإحسان أهل الخير أخرى ..

نعم، مضت الأيام على حالها بخطوبها ومرارتها وقسوة لياليها، سلبت من سعيدة حظها من الضحك ومن الصبية مرحهم مع مَنْ مثلهم من الأقران، ولم يغيرها إلا رحيل الزوج رضاني الذي معه اطمأنت نفس الزوجة المكلومة بعض شيء بل وحمدت الله على ذلك،

وهي تحمـــل تنهيـداتها المليئــة بالخوف والأمل في آنٍ واحد ..

فالقــدر هيأ لها فرصــة الحيــاة، دون أعباء هذا الزوج العليل الذي همه يربو على همِّ الصغار، إذ أصبحـت هي المصــرف لأحوالها وبنيها الصغــار الذين صــاروا في عداد الأيتام وهي تعلم أنها بهذه الحال ستجذب انتباه أهل القرية، وستكون لأهل الإحســان أقرب من غيـرها وحتمًا سيفيـض شعـورهم بالرحمــة والعطـف عليــها وعليهم ..

فقيــرهم يواسيـها عن قرب، ويمد لها يد العــون والبــر والقــرب، وغنيهم - إن عــد في هذه القرية أغنياء على قلتهم – ولنقل مَنْ يعيش في وسع من العيش منهم تأخـذه الشفقــة والإحسـان إليها وبنيها، فينالهم شيء من تلك العطايا وإن قلت.

ومذ ذلك الوقت وهي تستجمع قواها وتستيقن أن حياتها موصولة بحياة أبنائها فلا مجال لأن يعكر صفو مرادها أحد.

ومع قسوة الأيام التي تحياها وبؤس المعيشة التي تبعث داخل نفسها المعذبة المرارة والألم حد الازدراء ..

يظهر رضوان البعتلي ..

يتودد إليها وإليهم بالبر والإحسان مرة وبنظرة الإشفاق أخرى فهو لم ينسَ ما كان من أسباب الوصال والتعلق بتلك المرأة الفاتنة ..

يريد أن يصل ما انقطع من جميل الود، بينهما بعدما كان يسرق الوقت والنظرة تلو النظرة في خلسة من أعين الرقيب مخافة التلاسن عليهما بكلام يأباه وهي كذلك، ثم يقول في قرارة نفسه :

- أين تلك اللحظات السعيدة التي شعرنا خلالها سويًا بالحب والمتعة ؟! أين تلك الابتسامات المشرقة التي تخللتها ضحكات عذبة كنت أسعد بها، وسعدت هي كذلك ؟!

يمضي إليها متظاهرًا بالجد والشفقة، وفي نفسه الرغبة متى سنحت له الفرصة إلى ذلك سبيل .. ثم يستدرك في خياله خاطرًا وقع على باله :

- هي أصبحت مهيأة لي عن ذي قبل، بيد أنها ما زالت تختبئ وراء أحزانها كفاها ما مضى من التعاسة فقد أخذت حظها من الهم إلى الحد الذي يبعث الشفقة عليها ..
آن لها أن تبعد الخوف عن نفسها المعذبة ..
آن لها تطمئن بالنعيم، وأن تبتسم لها الحياة ..

فمَنْ دُونَها يحيونه دون أن يستحقوه !
لكن كيف الطريق إليها ؟

يستطيل الفكر ثم يستدرك قائلًا :

- أنا وقد تغيرت حالي وصرت بمنأى عن النقائص فما كان يُفْعلُ بالأمس لا أجترئ على فعله اليوم، ألم يكفني ما اقترفـت من الإثم .. لا سبيل إلا في الارتباط بها سرًا، لكن هل ستبتهج نفسها وتبدي الموافقة على ذلك ؟
ولما لا ؟ حتمًا ستسر وتملأ قلبها الغبطة إذ مُحالٌ أن تُقــابل رغبتــي أنا بالصــدود، ومحبتــي لها بالإعــراض.

والحق عزيزي القارئ تراني الآن قد تعتريني الشفقة على هذا الرجــل الذي أراه يكتــوي بنار الوجــد وحالة النشوة التي يمني نفسه بها، فأنا لا أنكر عليه تقربه من هذه الأرملة المسكينة الجميلة في نظره، إذ هو يكن لها حبًا خفيًا لم يألفه من قبل، ولربما وجد عندها من أمــان العشق ولين الجــانب ما لم يجــده عند غيـرها حتى وإن كان عن طريــق اختلاس نظرة متبـادلة، أو في لقاء لذة جمعهما سويًا.

غير أنه لما مضى إليها بشيء من الرفق والعطف، وألقى عليها شوق الكلام اضطربت اضطرابًا شديدًا، وخفق قلبها وشعرت بشعور تمتزج فيه الرغبة بالرهبة.

أمد لها يد العون في خبث تضمره النفس، واستبان في نظراته، مما دعاها أن تقابله بفتور على استحياء، ثم التفت هو إلى أن فتورها رفض وإعراض وكأنها تأبى المواجهة، وفي نفسها انكسار الأيام، ولكن قد يكون مع العوز والحاجة ترجع النفس عما أبته أولًا ..

بدأ يتودد إليها متشحًا برداء العطف والمحنَّة على صغار فقدوا عائلهم وأنيسهم، وهو يبدو وكأنه تغمره السعادة التي يستتبعها الرضا عن الفعل ..

وبمرور الوقت استبانت سعيدة مراد رضوان، فهي لا يخالها ريب في تلك النية لأنها تعلم حقيقة هذه النظرات التي عهدتها منه كثيرًا، حيث سهم النظرة لديه يفصح عن قوله في أحيان كثيرة، ولكنها ترفض ذلك تمامًا، إذ الزمن غير الزمن وهي بحق وعن صدق عزيمة تلعن نظراته وتأباها لأنها بصدق بدأت تنظر لنفسها وبنيها دون أي شيء آخر، وكأنها حائط الصد ضد تقلبات الزمن وأنوائه الشديدة العاتية التي لا يستطيع أن يقف أمامها أطفال صغار دون أن يكون لهم درعًا واقيًا يحميهم إلى أن يشتد عودهم وترتفع كلمتهم .

تجردت بحق من أنوثة محرومة إلى طاقات ثائرة ضد كل من يقف أمام تطلعاتها المكبوتة، وأمانيها المأمولة حتى وإن كان من أكسبها يومًا اللذة والإقبال على الحياة منتشية بذلك في لحظة ضعف منها، وذاق منها بإرادتها ما دافعت عنه كثيرًا إلا عندما استهوتها الميول وضعف الأنثى، عندما تجد المتعة لحظة الإهمال ..

فهي عزمت كل العزم أن تكسر رغبة نفسها وزهرة شبابها لأجل هؤلاء الصغار، ولا مجال أن تحيد عن هذه العزيمة أو أن تتخلى عن تلك الأماني ..

هذا ما كان من أمرها بل وفي قرارة نفسها، غير أن ابنها إبراهيم والتي قررت أن تعده على ما كان منه لأن يكون السند معها والحامي لها ولأخواته الصغيرات اللاتي لا يستطعن تدبير أمرهن في مواجهة هذه الحياة القاسية ..

تجدها يومًا وهو أمامها يغدو في عقده الثاني تقريبًا، تشد من أزره وتعظه ناصحة إياه بما جاد لها من عبارات النصح، وطاوعها من فهم الواقع ودرس الحياة، وهو ما يزال أمامها يفهم ما يفهمه، ويأبى عقله أن يفهم الغامض من كلامها العامي المفعم بالحنان كثيرًا، وبالقسوة أحيانًا لأنه لربما تذكَّر هذا الكلام يومًا فيعلم عندها ما تكن أمه من الحنان له والخوف عليه والحرص على مستقبل تتمناه فيه.

أعلم عزيــزي القــارئ أنك تحـــاور نفســك، وادًا أن تعرف .. كيف فعل الأمل برضــوان ؟ وكيــف تُســاير سعيدة صروف الحياة وتقلباتها ؟

لكن قبل أن نشق الطريق سويًا كي نتيح لعقلينا التمعــن والتفاعل مع الأحــداث، ولقلبينا التعاطف والشفقة على الأشخاص .. أذهب بك إلى حيث رغبتي، فأنا تتملكني رغبة لا أدري ما سببها نحو رضوان ؟!

الذي هو يقضي جــل ليله متأملًا حـــاله واضعًا نفســـه موضع الاختيار، وما أشد الاختيــار بيــن واقــع يعيشــه وأحلام يتمناها !!

يُخيِّر نفسه المعذبــة بنار الوجــد بين معشــوقة يرغبها، وبين زوجة وفية تحملت من أجله الكثير.

أظنك يا موضع الاهتمام قد تنكر عليه هذا الخيار، ومن الممكن أن تذهب بك نفسك قليلًا وتتخيل أن تلك الزوجة الوفية متسلطة على زوجها مسيطــرة عليه، وما وفاؤها إلا لأجل أبناء بينهما مثلًا، فهي تستحكم جملة الأمر في كل ما يخص تسيير شراع المعيشة وأمور الحياة ..

أما زوجها، فقد تظنه كمثل عجينة هشة لذا فهو يخافها، وهي تحركه كيفما شاءت، ومتى أرادت.

وقد تظن أيضًا أنها قد تمنعه التقرب إلى سعيدة زوجًا أو عشيقًا يألفها وتألفه، أو حتى أن يبوح أمام الناس بما يخفيه قلبه خوفًا منها.

لكن ليس الأمر كذلك، فلا هي من تلك النساء، ولا هو من هؤلاء الرويجلات، بل هي امرأة ضعيفة يروق لي أن أسميها عواطف ..

عواطف هذه لا تملك من أمرها شيئًا سوى وفائها وحبها لابن عمها البصباص الذي تعهده كذلك، ولا تستطيع أن تلومه، أو تخوض في الحديث معه كيما تثنيه عن هذا الفعل، فهي ترى أنها ما دامت تعيش في كنفه فهذا نعيم الحياة وملذتها بالنسبة لها ..

فهي تحفظ ذكرياتها معه بحلوها ومرها .. كيف كان يغازلها عندما يروق له ذلك ؟! ولما يعنفها كثيرًا عندما يُعكِّرُ صفو مزاجه ؟!

يعنفها بنبرات تكن عن عدم الرضا عن شكلها وقوامها السمين، والتي كان يؤذيها ذلك التعنيف والتوبيخ حد البكاء، وتقول في نفسها :

- هو أنا اللي صنعته يا ربي !!

فهي تملك بدنًا سمينًا على غير تنسيق، يعلوه وجه منتفخ يتوسطه أنف كبير مكور تكويرًا ظاهرًا، وأسنان

ناتئة على غير اعتدال ولا اهتمام، لا تروق لرضوان، فهي مثار استهـزائه دائمًا، غير أنها تملك من الصبـر الكثيـر، لا لأجل الحيـاة المترعة الناعمة التي يكتنفـها التنغيـص في أغلب الأوقات، بل لأجل فلذتي كبـدها (حنان وعامر) اللذين ترى فيهما زهرتين نمتا بيـن أحضانها بعد تعهدها إياهما بالحب والرعاية أيما رعاية ولا بأس من أن تتحمل ما يؤذيها لأجلهما - وإن كان ما يؤذيها هو الاستهـزاء على خلقتـها التي لا ذنب لها في تشكيلها، فهذا صنع الخالق.

تعمد إلى نفسها برهة وقد ازدحمت رأسها بأفكار عديدة طفت على خيالها ثم استنبهت على عارض من الشجـن والفرح في آن واحد ..

كيـف استقبلت نبأ زواجها من ابن عمها رضوان وهي منتشية حد الغبطة بهذا النبأ السعيد الذي طالما تمنته كأية أنثى تنتظر فارس الأحلام .. بيد أنها مع غبطتها وسرورها تعلم أن ابن عمها ما أقدم على هذا الارتباط إلا لأجل عمه الذي يرى فيه القـدوة والمثـل حد الحـب والإكبار لا لأجلها هي ..

سمعت أباها يومًا وهو يعهد إليه بها، ويوصيـه عليها بنبرة تعتريها الجديـة والأمل، قائلًا له:

- مد إليَّ يدك وعاهدني يا ابن أخي ..

فقال رضوان في احترام:

- على أي شيء أعاهدك يا عمي ؟
أنا لا أثنيك رأيًا، ولا أخالفك أمرًا ..

فقال عمه في شيء من الاهتمام، ونبرة يعتليها الهدوء:

- أنت شاب في مقتبل عمرك، تملك على يفاعتك من الأماني والأحلام الكثير، وقد حُبيت باليسر والسعة وأنا كذلك، وها هي عواطف ابنة عمك التي لم يهبني القدر سواها، وقد استوى عودها، وأنا أعلم مدى تعلقها بك وميلها نحوك، وأظنك كذلك ..
لا تؤاخذني يا ابن أخي فيما أقول، فأنت بمنزلة ولدي، وتعلم مدى حرصي على سعادتك وخوفي على مستقبلك، والمثل يقول:
- أخطب لبنتك، ولا تخطبش لابنك ..
وها أنا ذا أخطب لبنتي ولابني معًا ..

ثم بدت منه ابتسامة تُخفي ورائها حياء مما يقول من حديث يكسوه اللين، ويغمره الاطمئنان والبهجة من استئناس ابن أخيه بما يقول ..

- عاهدني يا رضوان بألا تدعها للأيام وسطوتها وأتراحها، فهذا رجائي وعهدي بك، وأمانتي لديك ... صنها يا ابن أخي ما استطعت.

وهذا الذي تـراه لي من ضِيـاع وأمـوال طـوع تصرفك وملك يمينك.

فما كان من رضوان إلا أن ترك لذهنه شيئًا من التفكير الصامت الذي يبوح بالدهشة الحذرة، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة إشفاق تبوح بالعطف والاستجابة لما كـان يرمي إليه عمَّه، استجـابة لها صدى في نفسـه، تتردد مع مرور الأيام وخطوب الزمان.

ومع كل ما سردنا من هذا الحكي لا يسعني إلا أن اذهب إلي رضوان الذي ما زال يمضي بعقله نحو الحيرة ..

فتراه لا يغادر ذكرياته مع سعيدة وما آلت إليه الآن، ثم ينهـض بغتـة إلى عواطف وابنيـه منهـا، اللذين يسعـد بحبهما ويأنس بقربهما، ثم ينهض بغتة أخرى متجـاهلًا هذه الحيرة وقد حدقت عيناه طويلًا، ثم يغدو مبتسمًا حد الانتشاء :

- الأمر سيان، لما لا أجمع بينهما .. الارتباط بسعيدة سيكون في طي السر والكتمان.
من ذا الذي سيعترض على ذلك ؟
لحظات السعادة لن تتكرر .. ماذا تبقى من العمر يا رضوان ؟

هذا ما كـــان من حال رضوان وما ســاقه إليـه تفكيـره، غير أني أعلم أن القارئ الآن قد يُثار في نفسه تساؤل:

- كيف لهذا الرجل الذي حدا به العمر إلى حد اعتلاء الشيب رأسه أن يتمادى في تفكيره ويبالغ في حيرته، وهو لم يستطلع بعد مدى استعداد تلك الأرملة البائسة في قبوله زوجًا ؟

أقول أن الظـــاهر أنها تنفق أيامها تلبيـــة لما يجـول في خاطرها .. تتنسم في أبنائها نسيم الأحلام حتى أنها تكاد أن تطوي الزمن طيًا في سبيـل بلوغ تلك الأمـــاني التي لا تفارقها لحظة، ولا تغمض لها جفنًا .. فهي عهـــدت على نفسها أن تسعى جاهـدة نحو بلوغ قطار السعـادة البهية، غيـر أنها في أحيـان كثيرة لحظة ارتكان الذات إلى واقعها تنـــاجي الدهـــر، وكأنها تعاتبه على ضنـــه القاسي عليها وأبنائها بذاك النسيم المأمول إذ هي سئمت تلك الوجوه الزائفة البائسة التي تَعْرضُ عليها كل عشية وضحاها ومن المؤكد أن ذلك العجوز الأشمط رضوان من بينهم، فهي ترغم نفسها مُصـرة على ألا تـدع له الفرصة بأن يغوص في درب الهـوى الذي أفضـى به خياله إليه .. فالظاهر أنها عقدت العزم ألا تقبله، ولولا الفاقة المنغصة لحياتها ما قبلت عطفه وتوددِه ..

فهي داخلها تأباه، وتصـد على استحيـاء تقـربه منها وبنيها، وترمقه بعين الهروب، ذلك لأن صدرها يجيش

بالعاطفة نحو صغارها، وكذلك أيضًا لأنها أبرمت عقدًا مع الزمن بأن تصارع أمواج الحياة بحلوها ومرارة أزماتها مهما تراكمت عليها أطياف الكآبة والآلام، دون أن تلتفت لمن كمثل رضوان وأن تهب نفسها لأولادها ليس إلا، بعيدًا عن أي متع ذاتية.

أراها الآن تنعم النظر تفكيرًا في بقائها واستقرارها في تلك القرية، وتهب قائلة:

- ما مصير الحياة في مثل هذه القرية التي لا يتجاوز رغد العيش فيها - بالنسبة لأغلب قاطنيها - سعادة اليوم وقد لا يتجاوزه ؟!
إذ معظم أهل القرية يتلبسهم الفقر مثلي وهم يتعايشون معه، وكأنه الرفيق الذي لا مناص من فراقه، لذا لا يتجاوز عطف أكثرهم قطعًا من أرغفة البتاو.

قد تكون عزيزي القارئ، تسمع "أرغفة البتاو" لأول مرة من خلال مأساة سعيدة وأبنائها وقريتهم التي يقطنون فيها، وقد يكون قد تنامى إلى سمعك هذا الاسم من قبل، لكنك تبدو محاولًا أن تستذكر هيئة هذا البتاو .. لكنني سوف أدفع عنك قصور معرفته أو أزيل عنك عناء الاستذكار، فأنا آليت على نفسي أن أكون مقربًا من قارئي، عالمًا بما يدور في خلده، أغوص في أعماق نفسه وأرضيه إلى الحد الذي لا يؤذي نفسي،

فكلانا يصحب الآخر إلى نهـاية الطريق الممهد لمحكى الأحداث.

خبز البتاو هذا يصنع من غلال الذرة الرفيعـة أو الغليظة أو كما يسميهما أهل الأرياف (غلال القيضى) للأولى و(الشامي) للثانية، فيسوى البتاو من دقيـق تلك الغلال حتى يخرج في هيئة لا تروق لآكليـه من حيث ثقل وزنه أو وضعه المتحجر، ناهيك عن تلك التشققات التي تعلو احمراره وكأنه أرض لم يأتِ عليها الماء منذ أعوام.

نعم، غالبًا ما تكون عطايا أهل الخيـر في قريـة بائسة كهذه مصنوع البتاو، اللهم إن كان في بعض الأحيـان شيئًا من خبز القمح الذي لا يهيئ إلا لقلة ممن وسع الله عليهم في رغد العيش، والذي يعتبـره الفقـراء الكثرة فاكهة إن قيس على البتاو، وعادة ما يأكله الفقراء دون حاجة إلى أن يغمسوه فيما طبخـوا أو طهـوا - هذا إن كان لهؤلاء شيء من الطهي يعتمدون عليه.

هذا حال العطـاء في تلك القريـة وغيـرها من القرى الفقيرة، ولا لوم في هذا العطـاء فعطاؤهم يعكس طبيعة حـالهم ومعيشتـهم .. بيـد أن سعيدة في تلـك الأثنـاء التفكير لديها قد بلغ مداه ...

تجلس وبنوها ملتفُّون حول مائدتهم التي أعدتها لهم كيما يستعيضوا بما عليها عن ألم الجوع الذي تبصـــره في أعينهم دون أن يبوحوا لها إلا عندما يستحكم الأمــر عليهم.

ولا تذهب بخيــالك بعيدًا عزيزي القارئ، وتنسج لنفسك طريــقًا تغــوص من خلاله كيما تتأمل مائــدة هــؤلاء الصغار .. فالواقع يقول إنها مائدة من خشب قد استجار بالزمان، من قِدمه تبدي عدم الانشــراح عند رؤيتــها، ولكنها تحقق كل الانشراح لهؤلاء الصغار عند رؤيتهم إياها وقد امتدت أمامهم ..

هي ليست كباقي الموائد المعهودة، بل مع رثاثة تكوينها تأخذ حظًا من الاستدارة غير المتناسقة في ارتفاع قليل، تقنع الجالسين حولها بأنها ملاذهم، وهم عن خجل ينتابه الامتعاض يقنعونها بأنها مصدر سعادتهم وإقبالهم على الحياة، وكأنهم يحادثوها حديثًا صامتًا يتسربل بأنفاس الخضوع إلى رياح الحياة التي تهب يمنة ويسرة وهم يتحــايلون على التكيــف والعيش معها، وهي كذلك إذ لا مناص من الهرب من حتمية الأقدار.

مائدة سعيدة وأبنائها ليست كباقي الموائد، فهي لا تحفل بما لذ من طيب الطعام، بل تعمر بما زكي من عطاء الناس مع ما ساقه الله إليها من رزق تستخلصه من ريع بيعها لحبات الترمس التي تصنعها في بيتها وتقدمها

لمبتاعيها مع بعض الخضر كالجرجير والفجل وغيرها والتي تجـد من خلالها طريقًا للحياة بعد أن كاد البؤس يقضي عليها.

فهي الآن تقنع نفسها بأنها بدأت تتذوق للحياة لذة، وللكرامة ثمرة بعد أعوام من الشقاء والحرمان حتى من أدنى مقومات الحياة.

تجدها وهي تمكث أمام بضاعتها - وإن كانت يسيرة قد لا تروق لأن تسمى بضاعة، لكنها ترسم لنفيسة خيالًا يبعث داخلها أملًا في الحياة، وإن كان بعض الناس يسامرها بالحديث ثم يبتاع منها ما يريد، سواء كان احتياجًا لما يشتريه، أو رأفة وعطفًا على حال تلك المسكينة .. وهي تعي ذلك جيدًا وتفكر فيه طويلًا وتستحضر في ذهنها تلك الأحاديث التي تستعذبها وتأنس بها أحيانًا وتأباها في أحيان أخرى، لكنها تُكره نفسها على الاستئناس بها دون أن تبرز أي ضجر أو حنق حتى تدفع الناس إلى الشراء منها باسمين عاطفين عليها ..

تفر من عينيها دمعة في لحظة يأس منها وهي تهمس في أذن الليل الذي تصحبه معها في رحلتها البائسة ليؤنس وحدتها كيما تعبر إلى بر الأمان:

- ما أقساكِ أيتها الحياة !
ما أشد ما آثرتِني به من الشقاء !
ألا تُدني منِّي اطمئنانك وانبساطك، فتنقشع عني تلك المروعات، كما ينبلج الصبح كاشفًا ظلام الليل فيُطمئن الدنيا بنشر الضياء، ويُدب في الكائنات الحياة والمرح فتبتسم الحياة بالإشراق البهي.

أنا أعلم عزيزي القارئ، أنك في شغف واشتياق وعندك بالغ الحرص لأن تعرف حال أبناء سعيدة بعد تلك الأحداث العضال التي يمرون بها ..

التف الصغار حول مائدتهم الخالية مما تستلذ به النفس من الطعام تقريبًا، ففوق استدارتها تلحظ عيناك بعض اللقيمات المتناثرة من خبز البتاو الذي تعرفت عليه آنفًا، وإلى جانبه وريقات من خضرة الجرجير وطبق تتهافت عليه أيدي الصغار، وبداخله ذلك الطعام الذى تبرع سعيدة في إعداده، ولربما لأنها لم يتاح لها سواه إلا عندما يمن أهل الفضل عليهم آسرينهم بعطاياهم وتفضلهم ..

هذا الطعام الذي أعي جيدًا أن فضولك عزيزي القارئ، يدفعك كي تتعرف عليه هو عبارة عن مطهو الملوخية التي لم يصبها شيء من مرق اللحم أو كما يطلقون عليها (قرديحي) أي بدون لحم، وكيف يكون لهم لحم

وهم يملكون بالكاد ما يستر عوراتهم، ويكبح إلى حد ما نهم بطونهم !!

ترى الأبناء على حالهم هذه وقد سعدوا بطعامهم بعد أن تم لهم الشبع، وإن كان شبعهم وامتلاء بطونهم عن طريق الملوخية القرديحي، بيد أن في نفوسهم امتعاض ومقت يمتد ساعات إلى نظرة الأم سعيدة إليهم وهي تئن أنينًا داخليًا بل صراعًا نفسيًا بين تطلعات الذات ومكتوب القدر:

- لا مقام لنا في هذه المخروبة (القرية) ..
من المؤكد أن الخير كل الخير في ابتغاء الرزق والسعي في مناكب الأرض بعيدًا عن بؤس المكان وأهله ...

هكذا كان حديث سعيدة لنفسها بكلمات سمعها الصغار وهي تنهض متثاقلة نحو بنيها، مقبلة عليهم مضمرة في نفسها باقي حديثها ريثما تعود إلى نفسها سريعًا:

- أرحل عن المكان .. ولكن .. إلى أين الرحيل ؟
مع من سيكون الجلوس ؟
وعند من سيكون المكوث ؟

ثم تأوى إلى رشدها في حيرة بالغة، وهي تقرأ في أعين بنيها نظرات تدل على الشفقة والألم في آن واحد ..

وبين السكون المطبـــق على المكان وإحســـاس اللوعة الذي ينتاب الجميع يفاجئهم إقبال شخص يمثُل على حد ليـــس ببعيـــد طـالما ألفتـــه الأم والأبنـــاء في ســـرور يستبشرون قدومه ..

طلَّ عليهم طلة بهية شعرت سعيدة خلالها بقشعريرة تلبست بدنها البض بمجـرد إنباء أحد أبنـــائها لها عـــن صاحب الإقبال، ثم لاذت بالصمـــت قليلًا وهي تُكـــره نفسها وقلبها على الكلام غير أنها أخذت ترمقه بنظـرة فيها من الوجل والقلق الكثير، ثم ما لبثت قائلة في شيء من عـدم الرضـا الذي تصارع ظهوره على قسمـــات وجهها:

- مين .. الحاج رضوان ؟!
تفضل البيت بيتك ..

استقبل المكان وهو يسترق النظر إليها في استطلاع مقرون بالدهشة والحذر .. بيد أنه لديه إحساس بالفرحة الباسمة، لكن يتخلل إحساسه شعور بالشحوب والذهول يمتد إلى أعماق قلبه، شعور جديد عليه لا يفهم مبررًا له، الأمر الذى جعل الخيالات تجوب في رأسه جراء هذا الشعور الذي ينتابه، ومن تلك النظرات التي ترمقه بها سعيدة والتي تحمل من ورائها معان كثيرة يفهم منها الإعراض عنه، وهو الذى غدا إليهم وقد ارتســـم على هندامه الحداثة - وإن كانت الحداثة عنده أمـــر معهـــود،

وجمال الهيئة لديه أمر ملحوظ، فهو يعتني بنفسه أيما اعتناء ..

غدا إليهم مستبشرًا حاملًا بعض العطايا أو قل الهدايا لأنها تحمل معنى أكبر من العطف على أمثالهم ..

غدا إليهم وفي خاطره أن مثله لن يرد لأنها إن علمت سبب مجيئه ستطمئن نفسها ولن تتردد لحظة في قبول ما عزم عليه من الرغبة فيها - خاصة إن تذكرت سعيدة ما آلت إليه، وما ستجنيه هي وبنوها إن أصابتهم رياح التغيير من وراء هذا الأمر ...

إذ هو قبلة الحياة بالنسبة لهم، وهي موضع الرغبة والفتنة بالنسبة له، غير أنه لا يعلم ما يدور في خلد تلك النفس المعذبة التي يفتتن بها، فهي عزمت على أن تجاهد الحياة، وتدافع ما حيت لأجل أمل تتمناه، ورغبة داخلية مكبوتة تنتظر الفرصة حتى تدعها تساير ركب الحياة حريصة على ذلك كل الحرص، لهذا فهي تأبى الاقتران بأي أحد .. فكيف إذن بمن ألحقها انتكاسة النفس، وأورثها العناء جراء رحيل العائل الذي واراه التراب كمدًا على فقد الصغير ؟!

وإذ به يبادرها بابتسامة حانية استلهمها من حياته الوادعة التي يحياها وهي تقابله بفتور جاف يعتريها من ثقل بؤسها ومرارة أيامها ..

أخذ يتلعثم في منطقه على غير عادته، بل ويتململ في جلسته مراودًا نفسه بالكلام على استحياء، وكأن الكلام لا يطـــاوعه إلى ذلك سبيـــل، ليس خـوفًا من سعيدة ولا مهابة للموقف فمثله لا يهاب مثلها، وإنما صدمته نظراتها التي يكتنزها البغض والإعراض ..

فهي تصرف نظـرها نافـرة منه تـارة، وتحملـق فيه باستخفاف تارة أخـــرى وكأنها تنظره لأول مـــرة، مما جعله يغوص في تفكير عميـــق متذكرًا ما كان منه منذ أمد، بل وحبه لها الذي لا يستطيع كتمانه حريصًا على أن يبوح به الآن ويفصح عنه على مرأى ومسمع من الأبناء، أما هي فما زالت تتابعه وترمقه بنظراتها، أما عقلها وخـــاطرها فمع أبنائها الذين التفوا حولها وكأنها موقد النار الذي يستحنى مدفئه في فصل الشتاء ..

تحتوي أبناءَها لا عطفًا عليهم، ولا اختيارًا لهم، إنما حبًا وعزمًا على وقـايتهم ورعـــايتهم مهما كلفها ذلك، ومهما استملك الفقر أو وطن عاتقها البؤس والحرمان.

همَّ بالكـــلام الذي تزينه الرقة والرغبة في استكـانة لا يدانيها ضيق ومهل لا يساوره الحياء، ومع الوقـــت أخذ النشـاط يدب في عقله وجسمه، فانعكس ذلك إيجابًا على كـلامه، لكن سعيدة لا تستطيـــب ذلك الكـلام، ولا تبدي له أي اعتنـــاء وهي تطرق السمع إلى كلامه دون اكتراث لما يقول، وهو يحدث نفسه:

- لِمَ هذا الجفاء على ما كان من رغبة جامحة في المودة والوصل وإن كان من جانبي ؟!

أخذا يتبادلان أطراف الحديث الراغب - عرضًا من قِبَلِ رضوان الجافي، صدودًا من تجاه سعيدة - وأعين الصغار ترقب القول وتنظر الفعل ...

تنقضي اللحظات بتنغيصها المؤلم لسعيدة، وبكآبتها غير المتوقعة لرضوان، وكأن الحديث بينهما طلقات تمزق أحشاء السكون الذي يطغى على الصغار، وسعيدة تحاول أن تكبح جماح دموعها لأنها تنكر على عينيها أن تبدوَا مرارة فؤادها في موقف ترى فيه العزة والشموخ لنفسها وخاصة أمام أبنائها ..

لذا فهي هبت فجأة من ثباتها، ثم حوَّلت وجهها المكفهر بالغضبة والأسى نحو رضوان، راغبة في أن تطفئ النار المُضرَمة المتأججة في نفسها والتي كثيرًا ما نغَّصت حياتها وأورثتها الألم والحزن، قائلة في حمية مدفوعة بالحرص:

- أنا لأولادي وبس .. مين ليهم غيري ؟!
سيبنا يا رضوان في حالنا الله لا يسيئك ..

ثم أخذ رضوان البعتلي يحاول معها، ويتقرب منها راغبًا أن يفهمها أنه ارتباط رسمي على سُنّة الله

ورسوله، لكن كل ما في الأمر أنه سيكون سرًا حرصًا على أولاده واستقرار بيته ..

لكنَّ سعيدة حدجته بنظرة يكتنفها الاحتقار، ثم احتدَّ جدالها وعلا صوتها مُعرضة عن كلامه، ثم عقدت حاجبيها ناقمة على ارتسامات وجهه المتوجسة باللوعة والعجب.

أما إبراهيم ابنها فقد مضى عليه الوقت وهو في صمت حذر يرقب القول ويلحظ الفعل دون أن ينبس ببنت شفة.

ثم همَّ رضوان بالكلام متجاهلًا بعض شيء إعراضها أو قُل محاولًا أن يغالب إعراضها بتذكيره إياها باللحظات الباسمة النادية التي جمعتهما سويًا ..

- ألا تذكرين الأوقات السعيدة التي قضيناها سويًا..
- ما أحلاها لحظات ! وما أنداها نسمات !
- آه، جلبت لنا النشوة أيما نشوة، والسعادة أيما سعادة ..

اضطرب قلبها، ثم خفضت رأسها للحظات وكأنها تغالب الإحساس بالانكسار والمهانة حتى تغلبت على انكسارها ومذلة نفسها، وفي جرأة مقتضبة يتخللها الامتزاج بالكدر أو الفجيعة أو كلاهما معًا، وكأنها لم يضيرها شيء من ذلك الحديث الذي لا يزيدها إلا عذابًا

على عذاب، وما يرثها إلا همًا على هم، وما يجسم على صدرها إلا أهوال تُظلم حياتها على إظلامها الفج:

- رضوان، لقد تخضبت نفسي بالآلام كثيرًا، ولا داعي الآن أن تجدد تلك الآلام، فقد حاولت جاهدة أن أضمد جراحي، وأن أتغلب على أحزاني وأن أنسى كل عبث محزن حرمني من هنأ الأيام وراحة البال ..
أعلمُ أنني قد تركت نفسي إليك يومًا، لكن لن أدعها ثانية فأنا المستقبل لهؤلاء الأيتام، وأنت الماضي بألمه وفرحه وترحه ..

حاول أن يقطع كلامها لكن شق عليه ذلك، فهي لم تترك له طرفًا من أسباب الحديث، بيد أنه أخذ ينظر بطرف عينيه متفحصًا الصغار، لا سيما إبراهيم الذي انتحى ناحية ونفسه مضطربة أشد الاضطراب وجسده متثاقلًا أشد التثاقل، يحاول أن يمزق الفقر والحرمان الذين جلبا له الخزي، وأن يقهر الأيام التي تصر على إذلاله ومقته، فها هي الآن ترمي إلى أذنيه وعقله الصغير الذي في رهبة محفوفة بالألم يعي ما يتطرق إليه من كلام ترمي إليه ظنون مشحونة بالأسي والخزي، وكوابيس يتخللها الألم لا محالة أنها ستلازمه طيلة حياته، ولن يكون بمقدوره نسيان ما اختمر في ذاكرته ..

ساد الصمت قليلًا، ثم همَّ رضوان بالكلام وهو يئن منسحقًا راغبًا حانقًا، تحت وطأة الحب والقرب، ثم همَّ مرة أخرى بالتهديد والتحذير، حيث لا يكـــاد يتـرك الفرصة لعقله أن يستوعب سبب هذا النفور والإعراض من جانب سعيدة، ثم نهض من جلسته وخلع نفسه من وقارها، الأمر الذي أيقظ داخلها دافع الضيق ثم الغلظة عليه دون اكتراث أو رهبة أو خوف فزمجرت وهاجت في وجهه محزونة غارقة في دموعها، ثم خفضـت من زمجرتها وهيجانها مبدية الشفقــة على أبنائها ثم همست إليه:

- سأقول لك سرًا أظنه يعنيك ويروق لك أن تعرفه فأنت حريٌّ بك أن تتذوق شيئًا من قدح الهموم والأحزان ..

أطرق أذنيه إلى كلامها مستنكرًا مع شيء من الدهشة..

- سر !
أيّ سر ؟!

أعطت لنفسها بعضًا من استجماع الشجـــاعة والتجلد بسيف التفكير، ثم ما لبثت أن أخذته جانبًا وهي ترمقه بنظرة التشفي، وفي جرأة أفضت إليه سرها ..

بدت عليه الغضبة والتجهم وجذبها من ذراعها ...

ثم سَرَتْ داخل نفسه قشعريرة، وخرجت من أعماق قلبه آهة دوي صداها في أركان المكان، ثم ما لبث أن تقهقر متثاقلًا من جراء وقع كلامها الذي هبَّ على سمعه كأنه نار هبت في هشيم، وترك الجميع قافلًا إلى بيته وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقدماه لا يكادان يحملاه، وكأن السماء أمطرت آلامًا اختصته بها وحده..

خرج وقد فعل به سر سعيدة الأفاعيل، الأمر الذي جعله يركل الباب من غير رفق، أما هي فقد انقطع الحديث من على شفتيها، وأطبق البكاء والنحيب على أبنائها حد الاستئثار بكاء حارًا فجعًا على دموع أمهم، غير أنَّ إبراهيم بدا زائغ العينين، ذاهل الموقف، ساهم الفكر ينتابه شعور خفي متسربل بالخوف والرهبة والألم، يحملق في وجه أمه في ومضة خاطفة بُغضًا وسُخطًا على ما نما إلى سمعه، وفي الوقت ذاته يلعن الأيام التي أثقلت كاهله الضعيف بمآس وأحزان لن تفارقه مهما طال به الزمن ..

ظلَّ كذلك والوقت يمضي ولا يمضي وصرخاته وآلامه ودموعه مكتومة داخل جسده، ثم يشرد حينًا:

- ما الذي قالته هذه المرأة التي تدعى أمي لهذا الرجل ؟! أهي أمي فعلًا .. أم أنها امرأة غيرها لا أعرفها ؟!

وفي مهل أليم أخذ يغمغم في نفسه ويقلب الأفكار في ذهنه حانقًا، لا يشغله شيء إلا أمر الحديث الهامس الذى دار بين أمه ورضوان، ثم ارتكن إلى أحد الأركان دامعًا ورأسه إلى ركبتيه جالسًا القرفصاء.

لديَّ شعور عزيزي القارئ، أن الدهشة قد أخذت عندك مأخذها ويبدو أن العجب لديك قد غمغمه اللوم وقد تقول في نفسك:

كيف تستطيع تلك المرأة الضعيفة المسكينة أن تثني رجلًا كرضوان البعتلي عن مراده، وتسبغ على نفسه ألمًا ووجلًا غريبين، لا تفسير لهما لديك ؟!

كيف تصر كل هذا الإصرار على رفضه، وهي في أمس الحاجة إلى عطفه وأمانه ؟!

أجل، هذا ما كان من حال، وما أشك في شعور رضوان بالرهبة والألم، ومن تماسك سعيدة بالجد والحذر، لكن القدر لا يمضي سدى، إنما يفتق المخبأ داخل النفوس مهما علا الوجوه خلافه ويكشف ما بداخل الصدور مهما حاول المرء كتمانه ..

فرضوان وإن كان لديه حنين معبق بالشوق نحو تلك المرأة اليانعة البائسة، أوحى إليه الظن أنها بمجرد النظرة والرغبة ستطمئن نفسها وبمجرد الكلمة ستبدي القبول والخضوع فرحة بذلك لكنه في الحقيقة لم يكشف

عما يضمره في سريرته تجاهها، فهو يريدها سرًا دون أن يعلم أحد ريثما يسترجع ألفته بها ويُمكِّنَ لجسده متعته من جسدها اليانع المشرئب بالنضارة الآسرة التي طالما استهوته وشغلت فكره، غير أن سعيدة آلت على نفسها ما آلته من رفض محتم لأي أمر سوى بنيها، فهي حرَّمت على نفسها متعتها، وعهدت على ذلك للزمن عهدًا لا سبيل لنقضه أو الانفكاك عنه .. إذن هي تأباه أصلًا فكيف الحال بالسر بعيدًا عن أعين النور!

الأمر الذي أفسد على رضوان ساعة القدوم إليها الحماسَ الذي يتخلله النشوة والسعادة، فهو شعر من حديثها معه عدم الاكتراث الذي يشوبه الإعراض والنفور، وفطن من اقتضاب جبينها وتغير قسمات وجهها أنها ليست من كانت بالأمس، لذا تسرّب إليه الإحساس بالحيرة المثقلة بالحنق ثم خفق قلبه بالرهبة والألم، مما أفسد عليه النسائم المتسربلة بالبهجة والسرور التي كان يُمنِّي نفسه بها على نحو ما قصصنا وكان السرد.

وما يدخل في نفسي ريبة عزيزي القارئ، وأعتقد وفي نفسك أيضًا أن هذا هو حال النفس البشرية، إن أسرَّت الحيلة والمكر تحت رداء الحب والهناء الباسم، فهي في الغالب تُرْغَمُ على الخوف ويتمكن منها الوجل وتكتنفها الرهبة، وإن أظهرت خلاف ذلك.

كيف لا ورضوان عازم على أن يجعل تلك المرأة البائسة الوادعة وكرًا لأن تسري عن نفسه نوازع هواها مقابل أن تنعم في خيراته، ولكن في خلسة من الناس بعيدًا عن أعين زوجته وولديه اللذين شبَّا تطلعًا إلى رحابة الحياة ونعيمها، فحنان الصغرى التي تنعم إلى جوار أمها، وقد ارتسم على وجهها نعيم الحياة وهناء السعادة التي لا تشوبها شائبة تعكر صفوها والتي تنم عن الاستقرار واليسر الذي تحياه تلك الأسرة ..

تنادي حنان أمها، والشمس إلى مغيبها تذهب، وفي دورانها تنحدر:

- ما بال أبي اليوم على غير عادته ؟!
لم أره منذ فترة على مثل تلك الحال !!
أتدرين لِمَ ؟

وفي شفقة يتخللها العجب والخوف في آن واحد ترد الأم عواطف على ابنتها .

أعلم عزيزي القارئ أنك لم تنسَ هذه المرأة التي تشفق عليها الحياة كما أشفق عليها وذلك من طيبة قلبها، ورأفتها على كل أحد حولها، وتركها نفسها لمتاعب الزمان وأهواء رضوان غير أنها تصرف عقلها في تفكير عميق، وتكلف نفسها عناء شديدًا يشغل بالها ويستأثر طاغيًا على لذة حياتها، فهي يساورها الشك

كثيرًا في دمامة شكلها وتشعر دومًا بعدم الرضا عن تقاسيم وجهها، لأجل ذلك لا يبدي زوجها شيئًا من الود لها مهما حاولت التقرب منه، لذا يغلب عليها الأسى وتفقدها اللوعة اطمئنانها بالنعيم والحياة الوادعة المستقرة.

ترد على ابنتها:

- هذا حال أبيك المعتاد منذ فترة ليست بالقصيرة .. أحسُّ بشيء من الغموض يتلبس تصرفاته، أظنه أيضًا بات ثقيل النفس متغير الأهواء، وكأن الدنيا بأعبائها وعبوسها أرست سفائنها عنده، وإن زاد غموضه اليوم فلربما يكون لعارض صادفه أو معضل محزن استوقفه، حقيقة ليتني أستطيع أن أدفع عن كاهله هذا العبوس وأزيل ما بنفسه من غموض ..

أقبلت حنان على أمها متشحة برداء اللطف والإشفاق:

- يا أمي الخير كل الخير يكمن في السعادة والقرب ولا داعي أن ندع الفرصة للأحزان أن تنغص علينا هناءَنا ومحبتنا، عليك الآن أن تبادري بالدخول إليه، وتغسلي همومه الغامضة بحنانك وأُلفك وتعرفي لِمَ هذا التغير ؟ وعلام هذا الحزن الذي لا يستبين له سبب بالنسبة لنا ؟

فإن الزوجة على زوجها أحن وأقرب، لا سيما بعد عشرة دامت كل هذا الزمان.

تنظر الأم إلى ابنتها فرحة بها وبكلامها الذي يقطر حبًا وتفوح من طياته حِكَمًا تفوق سنين عمرها، ثم تقول في نفسها:

- الله أكبر .. الله أكبر ..
بسم الله .. ما شاء الله ..
واللهِ كبرتِ يا حنان يا بنتي وبتقولي كلام أكبر من سنك.

ثم تضحك الأم ضحكة ملتاعة يتخللها الاستهجان مستوقفة كلام ابنتها.

وأنا لا أخفيك أيها القارئ، أن الشفقة حقًا ما زلت تأخذ مأخذها لدى تجاه تلك الزوجة المسكينة، حيث الكل يعلم جفوة رضوان لها ونفوره منها، وهي تبدي الحرص كل الحرص على تحين الفرصة للقرب منه متى أبدى لها شيئًا من الاهتمام، لذلك تجد الابنة حنان بابتسامة تملأ القلوب طمأنينة وتغمر الأعين بالحب، تشد من أزر أمها محاولة بتحريك تسوقه عاطفة البنوة لهما والرغبة في نشر حالة من الرضا الباسم والنشاط الذي يملأ البيت حركة بهية مطمئنة يأنس بها الجميع، تحاول

أن تقرب الوالدين من بعضهما مما يجعل البِشر والود يعلو وجهيهما ولو في لحظته.

عزمت الأم على فعل ما أثارته ابنتها في نفسها من طيِّب الكلام، استسلمت لذلك استسلام الطفل لأبيه الذي يلتمس فيه القدوة، غير أنها استشعرت في ذهابها حرجًا ما لبثت أن تفادته متخلصة منه بدافع الود ونظرات ابنتها المحمسة لها ...

دخلت عليه وقد أيقظت في قلبها عشقها القديم له، لكنه ما زال يستقر في فكرها بالغ الحيرة .. إذ كيف ستتصرف ؟

فهي يزايلها شعور لم تألفه من قبل، حيث لم تتعود مع طول العشرة أن تعطي لنفسها حق المشاركة في أمور زوجها الذي يظهر الجفوة لها في أحيان كثيرة ومواقف عديدة، وهي ترغم نفسها على تحمل تلك الجفوة المؤلمة وهذا التهميش المقصود ..

لازمها الصمت أولًا، وبعد تردد وإشفاق نظرت إليه بعاطفة طاغية نسَت معها جفوته القاسية، وتهميشه المؤلم، فهرعت نحوه بقلب يتوجس ألمًا وبحزن تغمره الدهشة، رأته وقد اتكأ على وسادته في صمت مريب وعيناه قد ارتسم منهما سيل من الدموع، فوقفت في ذهول لا لحزنه ولا لهيئته ولكن لتلك الدموع الغزيرة

التي تـراها في عينيــه لأول مــرة، إذ منذ اقتــرانها بــه برباط العشق منذ الصغـر وهي تألفه رجـلًا جســورًا لا يكسره الألم ولا يكله الدهــر بحوادثــه التي تتعــاقب على مر الأيام والأعوام.

تدافع الألم على وجهها مبديًا دمعًا على خديـها يقطــر عطفًا عليه، ثم سألته في رفقٍ تتخلله الدهشة والفزع:

- في إيه ؟! إيه اللي حصل ؟!

نظر إليها بعينين مفتوحتين، مستسلمتين للحزن، ينبعث منهما انكسار تستغربه الزوجة ..

وهو يحاول من خلال ذلك استعـادة الماضي الذي فاجأه بآلام حركت داخله عواطف مكبوتــة، ينسل منها الحنق وعدم الارتياح ولكن يعزى نفسه حتى تستمر الحياة في طريقها.

قالت عواطف بنبرة مواسية:

- هدِّئ من روعــك يا أبا عـامر، فليس هناك شيء يساوي قطرة من دمعــك العزيـز فلشد ما أنا فيه من ألم يعتصر قلبي أيها الغالي ...

عدل من جلستــه والصمــت يلازمه، وعلامـات الحيرة ترسخ في ذهن عواطف وهي تنظر إليه، وكأنها تتوسل الحديث معه، ثم لا تلبث أن تندفع إلى شرود يأس يحمل

معه ثقل الأيام وقسوتها وعجز الليالي عن البوح بآلام النفس واستسلامها للآخر ..

تفكر في حالة زوجها، فهي تعلم حد اليقين أن هيئة زوجها هذه ما هي إلا نتاج حدث جلل يحمل في أعقابه همومًا تنغص صفو ارتياح زوجها، فالأمر من المؤكد ليس له تعلق بأفراد الأسرة، فالابنة من وقت يسير يملأ وجهها البِشر وهي أيضًا التي حثتها على الاندفاع نحوه كيما تعلم سبب تجهمه المحزن ومن ثمَّ تكون إلى جانبه في لحظات يكون القرب فيها أدوم لأواصر المحبة، وأنفع لاستقرار الأسرة، بيد أنها كزوجة محبة تألف محبوبها لو أنها علمت حالة زوجها كما تراءَى لها، ما انتظرت أن يدفعها أحد نحوه - وإن كانت ابنتها.

قد تسألني متعجبًا وكثيرًا ما تسأل أيها القارئ، ما الذي يدفعك أن تسرد كل هذا السرد ثم تبوح بعد ذلك بهذا السر؟!

أقرر ما سقته سابقًا إنها المرة الأولى التي ترى فيها عواطف زوجها في حالة نكباء كهذه، حالة مريرة حد البكاء تثير الشفقة لمجرد النظر إليه، فقد علا وجهه الاصفرار وبدا على جسده الانتفاض، وكأنه طير يتقلب من ألم الذبح.

ساد الصمت قليلًا وهي منشغلة في شرودها ثم بادرها بصوت خفيض متهدج، وهي ترهف السمع صامتة منتظرة حديثه حد الإنصات، غير أن صوته أحدث شيئًا من الرجفة والرهبة في نفسها:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.
أنا كثيرًا ما أسأت إليك وأنتِ تتحملين كل هذه الإساءات في صبر كما لو أنك جبل ..
أرجو أن تسامحيني يا ابنة العم.

انفرجت أسارير عواطف، والتفتت إليه بجدية، ثم تحركت عواطفها الظامئة، وهي دهشة لا تستوعب أسفه، ثم تمالكت أحاسيسها وأجابته في هدوء وثقة، يغمرهما الاطمئنان:

- أنت ابن عمي وزوجي ووالد أبنائي، وكل حياتي وأملي، مهما فعلت بي فلن أمكن اللوم أو الحزن من أن يعرفا طريقهما إليَّ ..
أنت فرحة عمري التي تمنيتها فوهبني الله إياها.
الآن تغمرني السعادة، كل السعادة لكنني أشفق على حزنك وألمك ..

فقال رضوان في تأثر:

- دعيني لألمي وحزني ..

أجابته في إشفاق:

- كيف يكون ذلك وحزنك حزني وألمك ألمي ؟!

ثم قال رضوان بلهجة يائسة:

- أرجو ألا يعلم الأبناء بحالتي هذه ..

ودار بينهما ما دار من حديث يحمل كل مخاوف الحياة وآلامها في نفس كلا الزوجين، تغلبهما صروف الآمال ويعبث بكل منهما ما يشغل فكره، فكل منهما يفكر فيما هو أهل للتفكير بالنسبة له.

فرضوان مذهول فكره إلى حد الجزع بحديث سعيدة معه وسرها الذي أفضته إليه دون أن يكون على استعداد لمثل تلك النوازل التي تحيد القلب عن اطمئنانه بملذات الحياة ساعة وقوعها، كما لو أنها كابوس مفزع هتك راحة من يسعد بنوم عميق فوق فراش وثير.

ظل رضوان شارد الخاطر، تبلغ به الذكريات مبلغها ثم أخذ يفكر مستقصيًا في كلام سعيدة ويحلل ما قالته ريثما أنه كلما استعاد كلامها زاد ألمه وزرفت عينه من وقع الأسى، الأمر الذي جعله يهم قائلًا بلسان الكرب الذي يعقبه الحذر:

- ولدي ... يااه كم كنت أنتظرك !
كم كنت مشتاقًا إليك !

يا لوعة قلبي وحزن نفسي عليك !

ثم أخذ يردد مغمغمًا كلام سعيدة بصوت خافت، لا يستبينه أحد سواه، صوت يوحي بكآبة الحوار الذي دار بينهما:

- تحمل ما سأقول لك يا رضوان:

إن ابني الذي فقد غرقًا منذ فترة، وقد أعياني فراقه ومات زوجي رضاني كمدًا عليه لا يمت له بصلة، ثم تصمت قليلًا وقد غلبتها الدموع ..

ثم تهب بصوت شاحب حزين بما يختلج في صدرها غير عابئة بعاقبة الأمر، وكأن عقلها لم يكن له من التفكير في تلك اللحظة حضور:

- إنه ثمرة لقائنا البغيض ..

أطبق عليه صمت أقوى من الكلام ..

ثم أطرق في وجوم لا تطيقه نفسه من هول الألم الذي زايلها وأورثه التأثر بالحزن شر تأثر، ثم ندت عنه حركة تشي بعدم ارتياحه لوجود زوجته التي ما زال وجهها مقتضبًا بالحزن وقلبها معتصر بالألم، لكنها تفكر منتشية على استحياء باسمة بما يشبه الدهشة غير المعلنة بسبب إقباله عليها بأسفه الذي أدخل على نفسها سرورًا عجيبًا غير متوقع، ثم ترجع منجزعة إلى حالته

النكدة التي يضمر سببها في نفسه، ثم تنحو بشرودها فينة أخرى تجاه ولديها، وبالأخص عامر الذي ينعم بالتدليل والأُلف من جانب الأسرة جميعها، ويتطلع فيه أبوه آماله وأحلامه الواعدة حيث ينتظره المستقبل فاتحًا ذراعيه وهو يعدو نحوه راكضًا، وذلك لتفوقه الذي يلحظه كل من يخالطه، ناهيك عن ذكائه المعهود وأدبه الجم الذي ينال من خلاله إعجاب وثناء كل من يجالسه.

هذا هو عامر الذى يملأ روحه الود والتألق الوادع أيما تألق، كثيرًا ما تستيقظ داخله أحلامه وأمانيه كلما أصابه شيء من الفتور أو حل به عناء أو جهد ...

يسلي نفسه برحابة أيامه الآتية وسعادة أحلامه الواعدة لذا يقسو على نفسه بشيء من التعهد بالجد في استذكار الدروس وتحصيل العلوم والمثابرة على غنم الوقت راضية نفسه كل الرضا، خاصة عندما يخلو بنفسه وإلى أمامه دائرة معارفه التي طالما كانت هي جليسه القريب وأنيسه الوفي الذي يحادثه باهتمام وشوق دونما ضجر أو عناء، فهو يجد المتعة كلها عندما تتجلى ذكرياته الحالمة المشرقة ساعة يمضي مستأنسًا بدرس قد تمكن العقل من فهمه غير عابئ بالوقت، بيد أنه في بعض الأحايين يجد غصة تعكر صفو خلوته ساعة يهفو إلى خاطره بعض الأحاديث الهامسة اللامزة من بعض سكان القرية، والتي تحمل في طياتها غمزًا

ولمزًا يتنـاول بالسـوء والده، لا لشيء سوى نظـراته المتلصصـة وكلماته الساذجـة مع النساء، وتقربه منهن وحبه لمجالستهن، مما ينال ذلك كله من مكـانته الرشيدة بين أهل القرية، ساعتها يتسربـل عامر بشعـور غريب يغمره الضيق والرهبة حد الخوف، شعور يائس يقضي في لحظته على بهجة الخيال التي تغمر قلبه وروحه.

لكنني عزيزي القارئ، وأظنك توافقني الرأي إلى حد كبير فيما سأصـرح به وفق خيالي، أن هذا الابن الحيي المُجِد يختلف كثيرًا عن أبيه ذلك الرجل القارح في غيِّه والذي يتمثل الاعتدال وينزع نفسه إلى التقوى دون أن يكون له بصدقٍ نصيب مما يتمثله، أو ينزع نفسه إليه، فأنا حقيقة أبغض فعل مثل هذا الرجل بل وكل من يسير على دربه ممن يختلسـون النظرات تلصصًا على النساء ويغـررون بهن، لابسين ثوب النقاء والرواء أمام الناس متقلدين وشـاح الإكبـار آملين في الثناء والظهور في أبهى صـورة وأجمل حلة في أعين كل من يخـالطهم أو يتعـامل معهم، وإن كانت ضمائرهم لا تفي بشيء من عمارة القلب أو صفاء النفس.

أبغضهم لأنني أنكر عليهم فعلهم، خاصة إن صـدرت تلك الأفاعيـل من أُناس يُنظـر إليهم وكـأنهم المثـل أو موضـع القـول والرأي عنـدهم، فقد يلجـأ الناس إليهم لحظة إعسـارهم أيًا كان الإعسـار، وينتظرونهم عنـد

مصـــاعبهم على اختـــلاف مصـــاعبهم، فمثل هـؤلاء يضاهون المنافقين، ومن أبغـــض من المنـــافق المخادع الذي يظهـر خلاف ما يبطـن، ويقول خـلاف ما يفعل، ويصدر عنه خفية صغار لا يفعلها صغار.

نعود سويًا لعامر، ذالكم الابن الذي لطالما فكـــرت فيه كثيرًا لأنه على عكس أبيه ..

يجلس وقد أعطى لنفسه الاسترخـــاء الكافي ولتقاسيمه الابتســامة النـادية العذبـــة بعذوبة الحياة الوادعة، وهو يتأمل نفســه وقد ارتســم عليه أجمـل الهنـدام، في أبهى وأفضل موقع يتمناه، غاص في خياله الحالم وإلى أمامه منضدته وأصدقائه الذين غالبًا ما جالسوه برفق معهـود وجالسهم هو بحنو مألوف فهو يرومهم بالنظر متفحصًا كل كبيرة وصغيرة ريثما يمكن لعقله الاستيعاب الكافي، فهو يخصهم بالعنـــاية، وهم يروق لهم التسليـــة المثيـرة بالتقلب بين يديه في سرور لا يدانيه سرور، وبين آماله وحالة النشـــوة الحـــالمة التي يحياها مع كتبه.

تدخل عليه أخته حنان التي رمته أولًا بنظرة إشفاق، ثم وضعت يدها على كتفه فانتبه ناظرًا إليها بطرف عينيـه العسليتيـن المتوسطتيـن، وجه سمـح في امتلاء بسيـط ويزينه تنـاسق الأنـف حد الاستقـامة، كما لو أنه سيف ويكسوه بياض مشرب بحمرة، فأبدى لها الاهتمام وهز رأسه في رحب وود، قائلًا:

- ما كنت أتصور أنك بكل هذا العطف يا أختاه ...

ثم رنا لها بضحكة:

- كم أنتِ لطيفة، مهتمة بأخيك اليوم !

سرى في نفسها الشعور بالغبطة، وقالت وهي تلكزه في كتفه:

- يا سلام .. أول مرة يعني ؟!

ثم التزمت الصمت قليلًا، وأتبعت قائلة بصوت حزيـــن مقتضب:

- إن أباك اليوم أراه على غير عادته، كأن مساوئ الدنيا كلها دعيت إليه، دخل البيت واجمًا مهمومًا حد الكرب، لا يكلم أحدًا آثرًا نفسه بالحزن والألم دون سبب.

حدجها بنظرة يملؤها العجب والاستنكار ثم قال بصوت يبدو منه الخوف البالغ على حال أبيه:

- من أي شيء هذا ؟!

أجابته وهي ترفع كتفها الأيسر وتضم شفتيها:

- لا أعلم، لكن الذي يرى هيئته يعلم ذلك بتيقن.

قال لها في هدوء:

- أين هو الآن ؟

أجابته حنان وهي تمد النظر إليه:

- هو في غرفته وأمك إلى جواره.

سرى في نفسه رضا يشوبه الارتياح، خفف من حدة الخوف لديه لمَّا علم بمكث أمه إلى جوار أبيه، ثم خلد إلى نفسه هنيهة سارحًا بفكره، ثم نهض واقفًا في توه قاصدًا مكوث والديه.

طرق باب الغرفة مستأذنًا بالدخول ريثما ينبئ عن قدومه، لحظتها فطن أن أخته لم تبالغ في الأمر ..

فالمكان قد أطبق عليه الحزن، واكتسى برداء الصمت، كأنه الهزيع الأخير من ليل شتوي يغمره السكون من وقع الصمت عليه ..

آلمه المشهد ثم نظر إلى أمه فوجدها قد اتخذت من الأرض مجلسًا لها، ثم نظر إلى أبيه فوجده راقدًا على السرير وآثار من الدموع يغالبها وتغالبه، زادت لديه حدة الألم، ثم رنا إلى أبيه عاطفًا على حاله، سائلًا عن سبب هذه الحالة التي أخذت معها البِشر والأنس من البيت وكأن المصاب أليم ؟!

رمقته أمه بنظرة ملأها الأمل، ثم قالت له:

- تعال يا عامر ... وشوف أبوك ...

كأنها تقول بنظراتها الملتاعة:

- استقصِ يا عامر حال أبيك، لعله يخبرك بما يعتلج في صدره من هموم وأحزان ..
نحن لا طاقة لنا في رؤيته مهمومًا مكروبًا دون أن نخفف عنه شكواه، ولا طيب للعيش بدون ابتسامته في صحة وأتم عافية ..

تجمعت كل مخاوف الدنيا في وجه الابن واعتصر قلبه حزنًا، ثم جلس إلى جوار أبيه يربت على كتفه، ورقي له بما طاوعه من القرآن إلى أن انتهى إلى المعوذتين، ثم توجه بالنظر إلى أمه هامسًا بصوت ذي دلالة تتفق مع الموقف، وكأنه يستأذنها إلى الخارج ريثما يخلو بوالده.

تنحت الأم مستجيبة لرغبة ابنها، فبرحت المكان متثاقلة في مهل وتردد، لكن حسنًا فعلت، فلم يمضِ الوقت طويلًا حتى بدأت جبال الحزن تذوب مع كلمات الابن، والأب يغمغم بكلمات يفهم الابن بعضها وبعضها الآخر لا يستطيع في حيرة فك طلاسمها ..

أخذ الابن يستغرق في الكلام مع أبيه مرة بالجد وأخرى لابسًا ثوب الدعابة والمرح، محاولًا إفهامه أنه السند والأخ عند المحن ريثما يطلعه بما هو سبب مكيدة نفسه، فإن لم يكن هناك سبب لهذا الألم إذن هناك سقم لا بد من أن يعالج.

عندها تمالك الأب أعصابه لكنه آثر سبب ألمه لنفسه، فأخذ يلقي الحجج سببًا لحالته على غير الحقيقة، حيث سِرَّه ليس من الممكن أن يطلع عليه أحد، وبالأخص أهل بيته، ثم يعود شاردًا مغمغمًا في نفسه:

- المصاب أليم .. هو ليس أي أحد ..
يا ربي، كنت أتمناه الابن والسند ... وا أسفاه !

ثم قال متنهدًا بصوت متهدج خفيض:

- أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.
لا إله إلا أنت يا واسع المغفرة.

انفرجت أسارير الابن إلى حد كبير، إذ هو يهمه في المقام الأول أن يكون والده سليم الأعضاء، معافى الجسد، أما الحزن النفسي فالأيام كفيلة بأن تجعله في طي النسيان.

أما سعيدة وأبنائها فحالهم لم يختلف كثيرًا عن ذي قبل، فالأحداث العصيبة تلازمهم وكأنها حكر عليهم، حيث

الحزن الأليم مع شيء من القتر والعوز، خلَّفا تمردًا وبغضًا شديدين لكل شيء حول هذه الأسرة، لهذا كان بين عامر وطنطاوي - الذي أعلم جيدًا عزيزي القارئ، أنه ما زال يعلق في ذهنك فقده - بون شاسع وهوة ظاهرة، غير أن رضوان من المؤكد أنه يوقن أن طنطاوي ذلك الطفل الذي أدمل قلب أسرته لحظة فقده والآن هو سبب ألمه وحزنه، هو نقطة قاتمة تنال من هيبته ونظرة الناس إليه - إن علمها أحد، فما هو إلا ثمرة لذة ماجنة استهوته في خفية قد غواه الشيطان فيها، وخليق به ألا يجزع كل هذا الجزع أو يحزن كل هذا الحزن إلا أن عاطفة الأبوة قد خالها تبعث داخل نفسه حنينًا إلى ابن آخر إلى جانب عامر، رأي أن ذلك قد تحقق ثم انتهى دون أن يسعد قلبه بتحققه - وإن كان عن طريق الخطيئة وكأنه حلم افترسه كابوس مؤلم مزعج نغص صفاءَه وسعادته.

أخذ يتسلى بالصمت المغبش بالكآبة، ثم ذهب به خياله إلى عزوة كان يأملها فى ذلك الفتى غير أن القدر لم يتم له ما كان يتمناه، وأنا حقيقة لا أنكر عليك عزيزي القارئ ما تفكر فيه الآن، فأنا حري بي أن أدعك تذهب بفكرك كل مذهب، وتستنتج من السرد ما يروق لك وتأبى نفسك سائلًا عما يحتاج الإجابة، كيما تطمئن نفسك ويستقر يقينك، فلك كل العذر إن قلت في نفسك إن رضوان هذا ليس له من سبيل الحق شيئًا في أن

يحـزن كل هذا الحـزن على فقد طفل الخطيئة، أو حتى يمني نفسه بأبوة محكوم عليها بالعار متى علمت.

لكنني عزيزي القارئ ينغــرس في نفســي شيء من العطـــف والرفق على أمنية رضوان .. لا لأجلــه هو، بل لأجـل كل من في مثل حالته ممن يأملون رجــاء الله ريثما يمــن عليهــم بزينــة من زينتي الحيــاة الدنيــا، فرضوان مكـث طويلًا معذبة نفسه أشد العذاب، تداعبه الأماني منتظرًا ابنًا ذكرًا آخر إلى جانب عامر، ولطالما حلم بذلك بل اتخذ في سبيل تحقيقه كل السبل مع زوجته إلى أن أعيته كل الحيل وملَّه التفكير والتدبير ففكر جديًا أكثر من مرة أن يتـزوج بأخرى لكن هكذا حال الدنيا وتدابير القدر الذي يخطو وفق مشيئة الله.

وبين كل هذه العذابات النفسية والآلام التي تفتق العقول وتفطر القلــوب، يعزم رضوان في جهد مغمغم بالفتور على طي تلك الصفحــة، كاتمًا سره بين حشــا نفســه، مغمغمًا بحمد الله على كل حال، بيد أنه ارتسمــت على وجهه ابتســامة مقتـولة مكدرة، انتبه إليها الابن غير أنه لم يعِر كدرها اهتمامًا حتى يرفع عن كاهـل أبيــه آلامه وأحزانه، ولا يعكـــر صفــاء تلك اللحظة الحاسمة التي معها نهض والده ودب فيه النشـاط، وبرقــت عينا أمــه بالســرور وعلا جبينها البِشر والفرح، فما من شـك أنها

اليوم في أسعد ما يكـون حتى أنها رمـت ابنها بنظـرة ملأها الدفـء والحنان ...

تقدمت نحو زوجها الذي هب من ثبـاته، وأخـذ يمشي الهوينى لا خيلاء، وإنما مسبـط الهمة ضعيـف العزيمة، وقد تلاقت نظراتهما حتى دفعها الحمـاس والحميـة إلى أن تحتضنه، وقالت له بلهجة ملأها الحب والرجاء:

- عيني عليك باردة ..
ربنا يخليك لينا وما يحرمنا منك يا حج.

ثم جرت الأمور سراعًا تقلب القرية البائسة نحو الهدوء تارة، وفي أحيان تنحـو بها نحو ضروب أخـرى من خطـوب الزمان، وسعيدة وبنوها لم تتغيـر حـالهم غير أنهـم بـدؤوا يتعـايشـون مع قسـوة الأيام بخطـوبها وهدوئها.

فالأم وبناتها أخذن يسـايرن ركب الحيـاة تحت وطـأة نسيان ما كان من أمر رضوان، وما سببـه لهم من أذى نفسي فقدوا على إثره مرح أخيهم الوحيد الذي ينسـاب منه الوجـوم والحـزن إلى حد الكآبة يومًا بعد يوم، فهو يخلد إلى نفسه كثيرًا منزويًا إلى فؤاده المعذب، ضامرًا في نفسه مقتًا وبغضًا شديدين ينتظران الثورة في وجه رضوان متى اشتـد عـوده، وسنحت الفرصة إلى ذلك سبيلًا، غير أنني أتصوره - على حداثة سنه - يكن حبًا

لأخـوته – خـاصـة أنه أصبح عائلهم، وأمـــه ببساطتها وحنوها عليه تلمس فيه ذلك جيدًا لذا تريد أن تجعل منه ظهرًا تنكســر عليه مغبــات الزمن، ووحشًا في غــابة الحياة الموحشــة التي تتوه فيها الأماني، وتشحــب فيها الوجوه من وقع الضعف أو البؤس أو الجور أو الضيـق أو جميعــهم، فلا تظفر النفـس ساعتها إلا بما يؤرقــها ويثقل كاهلها بالهموم الجسام، لكن إبراهيم ينتابه التأفف المقيــت لأمه حد السيطـرة عليه، فهو ينكب في جفــائها ولا يستلذ بكلامها، وتستحيل نفسـه الإنصات إليها الأمر الذي جعل سعيدة تتحفظ على ذلك الفعل كثيرًا، تخـــاله عــاقًا فتؤنبه مرة وتعنفه أخرى، والابن يستخــف بـذاك التأنيب ولا يستجيــب لذلــك التعنيف حتى لكأنه يضيق ذرعًا بمحادثتها، ولا يحتمل الوقــوف إلى جوارها، مما سبب لها جرحًا في الإحساس يزيــد اتســاعه كلما أبدى لها الإعراض أو توالت عليه الأيام.

يدخــل إبراهيم في توه، وقد غــدا من عمـل شــاق وهو ساخط عليه أشــد السخط لكن شجاعة التحمل لديه تمده بما يطيــق، وتجعل الرضا مغصوبًا عليه، يتدفق داخله كيما يستقيم له النفع بحصيلة كده من ذلك العمل فيمكن للأسرة حتى ولو أدنى ملذات العيش، فما ينبغي للنفـس أن تبغض مشقـة العمل وهي تقاسى ألم الحرمان وتجهد عســر البـؤس والشقاء، إذ لا سبيــل لها سوى الصبـر

والتحمل والاستسلام لقدر الله، إلي أن يسبغ - سبحانه - عليها سحائب رفقه ورحمته.

فإبراهيم تحت وطأة الشمس العنيفة الحامية في موسم حصاد القمح مع أقرانه يعمل على اجتذاذ عيدان المحصول من الأرض بعد أن يتم لها اكتمال النضج، ثم جمع تلك العيدان المتناثرة من على الأرض بعد أن يتمكن ذوو السن الأكبر من ضم المحصول إلى بعضه ووضعه إلى حيث يكون الوضع على هيئة أكوام تشبه الهرم إلى حد كبير ريثما تعد للتهيؤ لاستخراج غلال القمح منها، وهنا تكون السعادة كلها لصاحب الأرض الذي آن له أن يجني ثمار تعبه من تلك الأرض، ولإبراهيم وأقرانه ومن يكبرونهم لأنهم سينعمون بما يتحصلون عليه من نقود، وبالضرورة سيصيبهم شيء من غلة المحصول.

عاد من عمله والجو قائظ بالحرارة، والشمس قاربت على الزوال، ووجهه ملبد بالقتامة من وقع الشمس عليه طيلة اليوم، وأثر الرياح المتربة التي تهفو في مثل هذا الوقت من العام، فتملأ الجو بالغبار الذي يعلق بالأبدان والوجوه حد الالتصاق ..

يصدر أنينًا عفويًا من وقع التعب ..

وأمه تجلس جلستها المعهودة في انتظاره، ثم تقبل عليه بابتسامة عريضة ملأتها الشفقة والعطف محدثة نفسها:

- شِلْتِ الهم بدري يا كبدي .....

ثم تخاطبه وعلى وجهها ابتسامتها التي تمنح ذلك الوجه الزهو واللطف:

- تأخرت النهارده يا إبراهيم .. باين عليك التعب يا ولدي ..
اسم الله عليك، يقطع الشغل وسنينه ..
بكره ربنا يعدلها ...

قالتها بتمهل يقترن بالجدية حتى تبعث الطمأنينة والأمل في نفس ابنها، ثم توجهت بالنظر إلى بناتها، وقالت لإحداهن:

- قومي يا بت هاتي الميه لأخوكِ .

وللأخرى:

- وأنتِ قومي حضري له الكحروتة.

فقامتا في التو واللحظة بنشاط وهمة .. بيد أن الثانية منهما قالت:

- هي فين الكحروتة ؟

أطرقت الأم السمع إليها، ثم قالت بلهجة تحيطها الحنق والغلظة:

- اخلصي ... عندك في الطاقة أنا دسّاها ..

فما كان منها إلا الطاعة، دون أن تفصح عن شعورها المكفهر بالضيق من حدة كلام أمها وغلظتها.

في ظني أيها القارئ، أنك تعجب ضاحكًا من أمر الكحروتة، لأنه لربما يكون لفظًا قد تطالعه نفسك لأول مرة، ولا تجد حيلة لاستقصاء فهمه إلا وفعلتها وأنا أشفق عليك في هذا الاستقصاء، ويسرني أنك تحاول استبيان كل كلمة في هذا السرد، الأمر الذي يجعلني أنتبه إلى ذلك جيدًا وأستقصي اهتمامك، وأزيل عجبك في رضا، دونما سأم وفي رحب دونما سخط، لأنك موضع اهتمامي وعنايتي، فالكحروتة لفظ يتداول على ألسنة العامة في بعض قرى الصعيد أو بالأحرى في بعض أرياف القطر المصري على السواء، وما هي إلا الواحدة من جنس البيض.

وأيًا ما كان الأمر، فإبراهيم تظاهر بأنه لم يعِر هذا الحوار اهتمامًا، فقد ارتمى من وقع الجهد والتعب على حصيرة من الحلف المتهالك، وأسند رأسه إلى وسادة حقيرة ريثما يمكن لجسده المتعب الراحة، ولو لوقت يسير فاغرًا فاه، شاردًا ذهنه، وعيناه محلقتين في

السماء لا تستريحان إلى عبث الحياة به، وقسوتها عليه فالدنيا بأثقالها حمَّلته فوق ما يطيق، وما زالت تصر على ذلك، ثم يفيق من ذلك كله على صوت أخته (صابرة) وجسده المنهك ما زال يتمتع بموضع استلقائه الذي لم يغيره سوى الرجفة التي أحدثها نداء أخته، فرفع رأسه متثاقلًا غير أن الرجفة جعلته يشعر بشيء من الضيق غير المعلن حيال أخته، ثم كررت أخته النداء الذي ارتقى نحو العلو هذه المرة:

- قوم يا إبراهيم، لأحسن الأكل يبرد ..

لم ينتظر طويلًا فنهض واقفًا ملبيًا نداء أخته، ومستجيبًا لشهوة بطنه، إذ هو أمام وليمة بالنظر إلى حالهم، ثم ابتسم ابتسامة متكلفة وقد جرى الانشراح مستعليًا وجهه لمَّا رأى كل هذا الاهتمام من أمه وأخواته ثم قال بلهجة متحمسة مسترقًا النظر إلى أمه، متسائلًا بما يشبه من يريد أن يسترسل في الحديث:

- إيه حكاية الجو النهارده ؟!
شديد الحرارة زي ما يكون من حرارة جهنم.

ردت الأم بلهجة ذات دلالة تتفق مع الموقف:

- خلاص الوقت بيقارب على الغروب ومعاه بتهب نسمات طارية تزيل حرارة النهار، لكن النهار صح كان شديد الحرارة، والشمس كانت عنيفة

قوي، كأنها حتقترب من فوق الرؤوس من شدة الحرارة ..
ربنا يلطف بالعباد ..

أخذ إبراهيم حظه من الطعام، ثم إلى الماء فارتشف منه ما يزيل عطشه بعد أن تم له الشبع، ثم إلى ماء آخر راغبًا منه أن يرفع عنه مشقة العمل ومتاعب الأيام، وكان له ذلك فغمره الانتشاء بالنظافة بعد أن أزيلت عنه آلام الجهد والتعب، فألفى نفسه خارجًا من كوخه الصغير الذى ما زال على حالته الحقيرة ريثما يسترد أنفاسه وطاقته بالحديث مع غيره ..

خرج إلى الطرقات التي لا يستقيم لها طولًا شأنها شأن الحواري الضيقة، غير أنها تتسع حينًا وتضيق حينًا آخر، حسب بروز واجهات البيوت غير المنتظمة البناء ولا الهيئة، آملًا في ذلك الخروج أن يجد من يسلي وقته ويخرجه من عزلته بالتسامر أو المفاكهة جدًا أو هزلًا.

أخذ إبراهيم يمشي في الطرقات ما وسعه أن يمشي، ثم ندت عنه انطوائة يشوبها الارتباك، وغمر قلبه شيء من الخفقان الذي أخذ يتتابع علوًا وانخفاضًا وغلب عليه الوجوم صمتًا لمَّا رأى في طريقه رضوان في هندامه المعهود غير أنه فوجئ بأنه ليس من كان بالأمس، فقد بدا ضامر الوجه، ولحيته كثة لم تكن على حالها، فقد أطلق لها العنان، مصفر البشرة كأنه مريض لم يبرأ

بعد من سقمه، فعلامات السن والهم قد اعتلتا وجهه وجسده بوضوح، ولم يكن رضوان في تلك الأثناء وذلك المسير، شاقًا طريقه بمفرده، إنما كان إلى جواره ولده عامر الذي ظهرت عليه علامات اليفاعة والشباب كأنه ظل أبيه يتحلى بمشيته ويخاطبه مازحًا بضحك وافر يطمئن إليه الأب ويستنكره إبراهيم في نفسه، الأمر الذي جعله يحدجهما بنظرة جافة يكتنفها البغض والوعيد لكن قلبه ما زال في خفقانه واضطرابه حد الوجل، ولم يدع بابًا من أبواب الطمأنينة والتثبت إلا طرقه، حتى يثنيه عن ذلك الاضطراب، فلم يغب عنه الإحساس بالخوف والقلق وقت مرور رضوان وابنه، بيد أن رضوان لم يعره اهتمامًا لربما لأنه لا يعرفه أو لا يعنيه أمره أو لربما أيضًا هكذا شأنه مع من في سن إبراهيم من الصبية الذين يحيون حياة البؤس والشقاء، لكن سرعان ما استجمع الصبي نفسه آخذًا الحيطة من كل أسباب الخوف أو القلق، نازعًا قلبه من الاضطراب أو الوجل وبترقب وحذر شديدين من جانب الصبي، ندت عنه تمتمة حانقة أخذ عقله يرددها، وقد برقت عيناه وارتفع حاجباه:

- أنت العدو الثاني بعد الفقر والحرمان يا رضوان. سأنغص عليك ارتياحك ما بقيت، وسأبدد هناءَك ما حييت ..
لن يقف أحد بيني وبينك أيها الفاجر اللعين ...

هكذا وسع إبراهيم القول في صمت يدفع به ما يختلج في النفس من شوائب الحقد ونوازع البغض، ثم أخذ إبراهيم يتهادى في مشيته، يركل ما يصادفه في طريقه تارة، ويعبث بما تمتد إليه يداه أخرى، مبديًا أريحية لما قال في نفسه التي بدأت تشعر بالهدوء والطمأنينة من الانفعال والاضطراب اللذين أصاباها لحظة تصادفها مع رضوان، وبين عبثه اللاهي وركله القاسي يمضي إبراهيم في طريقه وهو يردد:

- (إن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا)، وهو قد لا يدري معنى لما يجري على لسانه، غير أنها وردت على خاطره، مسليًا نفسه بما يقول، فهو سمع ذلك يومًا لحظة إنصاته لترديد الصبية في كتاب القرية وراء شيخهم أو وراء من ينوب عنه ممن أتم الحفظ من الرفاق ونفسه تتوق إلى مجالسة هؤلاء الأقران لكن البؤس والحرمان كانا حاجزًا أمام ما تتوق إليه النفس فهو يعزيها بالإرادة، ريثما يدفع بها اليأس والروع.

أخذ نفسه موغلًا بين عطفات الأزقة حتى انتهى إلى موضع جلوس الجمع من صبية القرية، حيث وقع سمعه أثناء إيغاله على أصواتهم أسفل شجرة الجميز العتيقة التي يحلو لهم المكوث واللهو عندها وكأنها الملاذ لهم، يتنادرون ويتسامرون ويتفاكهون ويذهبون

في ذلك كل مذهب، حتى لكأنها موطأ اللهو والتنادر الوحيد بما حولها من فسحة تمكنهم من الركض واللهو خلف بعضهم البعض دون حاجز يمنعهم أو حائل يحول بينهم وبين مبتغاهم أيًا كان المبتغى.

جلس إبراهيم بينهم بعد أن ألقى إليهم التحية، ثم أخذ يسامرهم بما راق له من كلام جال في صدره، ثم رفع عينيه إلى أعلى في لفتة غريبة مجترًا آهة عميقة تنم عن الارتياح لكن انتبه لها جميع الصبية ما بين مستنكر ومستغرب في فكاهة جعلت الصبي يمتعض من نظراتهم ودعابتهم، غير أنه استدار بوجهه غير عابئ بما يصدر عن الصبية من فكاهة ينكرها، أو نظرة استخفاف تجعله يمصص شفتيه من شدة الغيظ، ثم خط صمت عميق أسكت الجميع حين بدا قدوم غلام يأبى الجميع مجالسته اتقاءً لشره، يحلو لي أن أسميه عرفة ويحلو للصبية فيما بينهم أن ينعتوه (شنه) وذلك لأنه كثير الرشح والزكام، حيث يخرج من أنفه ما يثير في النفس الاشمئزاز ويصيب مجالسيه بالتأفف والحنق، لذا أسموه (شنه) غير أنه يكره ذلك الاسم، وينزل العقاب زجرًا على من ينعته به، ناهيك عن عدوانيته المقرونة بشقاوة التفكك تحت وطأة العوز والحاجة فلك أن تتخيل غلامًا نشأ هذه النشأة، وعاش معيشة التحلل من الأسرة دون رقيب، فهو لا يسأم ممارسة سوء التصرف والطيش، ولا يمل دناءة الخلق وسفه الإرادة في التعامل

مع صبية القرية وساكنيها، لذا تجد أهل القرية يكرهون مجالسة بنيهم له أو لهوهم معه.

قدم عرفة أو (شنه) كما ينعته الصبية، فساد الصمت الذي يعقبه الخشية والحذر، ثم جلس بينهم ممازحًا بعضهم ممن يعتاد المزاح معه في بعض الأحيان، ومتفحصًا أوجه البعض الآخر إلى أن وقعت عينه على إبراهيم من بين الصبية فابتسم الصبي أولًا، ثم بادله الغلام الابتسامة حتى يبدي له الأريحية واطمئنان النفس وبنظرة مشتاق أخذ يرمقه طويلًا وكأنه وجد شيئًا يبحث عنه، فأرعش حاجبيه له ممتنًا أشد الامتنان، ولمعت في عينيه نظرة ذكية تنم عن حسن توقعه في هذا الصبى، غير أن الصبي بادره في جرأة، قائلًا:

- في إيه يا جدع .. أول مرة تشوفني ؟!

استغرب الغلام من جرأة الصبي، الأمر الذي جعله يغمزه في يده هامسًا:

- قوم يا إبراهيم .. أنا عاوزك.

أجابه إبراهيم بما يشي بالاستغراب:

- عاوزني في إيه ؟!

قال ذلك متوجسًا مضطربًا.

ضحك عرفة ضحكة خفيفة تخفي ورائها الذي يكنه في صدره، ثم قال:

- عاوزك في شغل يا أخي ..

ثم نهض عرفة واقفًا ومن وراءه الصبي إبراهيم، بيد أن الصبي أصابه شيء من الخوف وتلبست قلبه الرهبة فأخذ يتبعه مستسلمًا بعيدًا عن الصبية، كما لو أنه لص أذنب ثم أمسك به وشد عليه الوثاق، فهو يستسلم لقائده منقادًا على غير رغبة منه، منتظرًا مصيرًا لا يعلم له عاقبة.

انعطفا بعيدًا عن الأعين المتلصصة والوقت ينحدر نحو المساء، بيد أن المساء بدا متخللًا بشيء من الضباب الذي يزيده إظلامًا على إظلامه، فقد بدت السماء وكأنها لا تفصح عن صفائها، إنما تضيق بالكدر فتخبئ أنجمها وتحجب ضياء قمرها.

جلسا سويًا بين محكى الغلام وإنصات الصبي، وقد بدا على الصبي إحساس بالرهبة والترقب، ولكن ترقبًا ورهبة يطغى عليهما الاستسلام، ثم قطع إبراهيم استرسال عرفة في كلامه، قائلًا بصوت متهدج بالغ الخفوت:

- لا يا عم .. أنا ما أقدرش أعمل كده ..

ثم أردف قائلًا:

- أنت يا ريس في حالك، وأنا في حالي ..

سيبني ياعم في اللي أنا فيه، وشوف لك حد غيري ..

أخذ الغلام عرفة يزيل رهبة الصبي، ويستميل خاطره ريثما يبعث الأمن والطمأنينة داخل نفسه، وبعد عناء طويل من الشد والجذب تم له ما أراد، ثم انسل الصبي إبراهيم واجمًا شاردًا دون أن ينبس بالكلام، إنما يغمره التفكير في هذا اللقاء، مدفوعًا بوطأة الإحساس بالضيق والخوف.

أما عرفة فمكث مكانه والشرر يتطاير من عينيه اللتين جحظتا ترقبًا للمارة، ثم أشعل سيجارة رغبة أن ينفث عن ضيقه وحلمه الذين عاناهما حتى يقنع الصبي بما علق بفكره، بيد أنه انتشى قليلًا من نزول الصبي عن إعراضه بعد استسلامه له بين الرغبة والرهبة منه.

حل الليل بظلامه الدامس وبعتمته القاسية وخط الهجوع على القرية شيئًا فشيئًا وكأن القرية لا يسكنها أحد، غير أن إبراهيم يزايله الشعور بالوجل إلى الحد الذي جعله يرتكن بعيدًا مرتميًا على فراشه، موهمًا من حوله بالراحة حد النوم، فهو لا يستطيع أن يكتم هذا الشعور العميق الذي يزايل قلبه وعقله، فعيناه لم يغمض لهما جفن ..

يراقب الليل ساهرًا، وإن بدا عليه التثاؤب أرغم نفسه بالتحلل من مقدمات النوم، ريثما يفي بلقاء الغلام فهو يعلم أنه لا يستطيع أن يتأخر عن عرفة وإلا أصابه التأنيب والتأديب ..

أخذ يتطلع بإمعان إلى جثو الظلام كما أسدى إليه الغلام ثم استعد للانطلاق كالسهم محطمًا سد الصمت، نازعًا ثوب الوجل، متسلحًا بسيف الشجاعة التي استمدها من الغلام لحظة اللقاء ..

خرج من كوخه الصغير خفية، وأمه وأخواته يغصن في نوم عميق، يكسو قلوبهن اليقين بأن إبراهيم ينعم بالنعاس تحت وطأة الجهد والتعب ..

انسل الصبي من بينهن دون أن يحدث صوتًا أثناء خروجه من الكوخ، حيث باب الكوخ ما يزال على حاله الرثة الحقيرة التي لم يغيرها شيء، فهو بالكاد يكاد يستر ما بداخله، فكيف له أن يحدث صوتًا ينبئ عن الخارج أثناء فتحه ؟!

أخذ الصبي ينطلق متخفيًا قاصدًا لقاء الغلام الذي رسم له الطريق وموعد اللقاء، إلى أن حل المكوث به عند شجرة الصفصاف التي ما زال يسكنها طائر اليمام مطمئنًا في مملكته مع أفراخه، ينعم سعيدًا بالراحة فينام ملء أجفانه غير عابئ بمشقات الحياة وعذاباتها.

أحدث مكوث إبراهيم صوتًا يشوبه الإزعاج من جراء حركاته المبـــاغتة التي أصـــابت اليمام بالذعر، وجعلته يهدل هديلًا مضطربًا استحال معه خلود الراحة بالنسبة لليمـام، وأصـاب إبراهيم الخـوف وانهيـار الأعصـاب بالوجل، ثم رويدًا رويدًا غلب على المكـان هدوء حـذر بيد أن طـائر اليمـام أخذ يرمق إبراهيم بنظرات وادعة حينًا ومضطربة أخرى، وإبراهيم توسوسه نفسه بأوهام العفاريت وقصصها المرعبة التي تقشعـر منها الأبدان، وهو يناغيها بالتثبت ريثما تهدأ وتطمئن وعيناه تلمعان في ظل الهـدوء الذي بســـط سطوته على هذا الفضـاء الرحب الممتد، ثم أخذ نفسًا طويلًا من أعمـاق نفســه محاولًا أن يزيل القشعريـرة التي تهز كيانه وجسده إلى أقصى درجات الاهتزاز من وقع الخوف والأوهام التي تعلق في ذهنــه، فهو يكاد يتلمس الأمـل في قدوم عرفـة وفي نفسه يسبه بأقذع الألفاظ لائمًا نفسه على هذا الفعل الذي دفعه للانتظار الرهيب الذي لا مناص منه قائلًا:

- ماشي يا شنه يا ابن الكلـب .. اللي يتبع كلامــك تاني !

وبين خوفه وأمله يظهر الغلام مناجيًا في الظلام الحالك أحد الأشخاص، مما أثلج صدر الصبي وأحدث في قلبه شيئًا من الطمأنينة فغدا الصبي شاقًا الطريق إليهما دون أن يرفع صوته أو يلوم الغلام على تأخره ..

قابل الصبي الاثنين رفيقي الليلة، دون أن يتعرف على الشخص الثالث أو يحاول الإقدام على معرفته ..

ثم تحرك ثلاثتهم صوب المقصد الذي اجتمعوا عليه في خفية يتلبسها الحيطة والحذر الشديدين، والاستسلام الواضح من الصبي للغلام، كما لو أنه كلب يتبع صاحبه أينما غدا أو راح، ثم أخذ الغلام يهمس للصبي بصوت خافت يشي بالتذكير:

- خلي بالك يا إبراهيم ..
أوعاك تنسى اللي اتفقنا عليه ..

ثم أردف كلامه بشيء من الجدية والحرص حتى يبعث داخل إبراهيم التثبت، ويزيل عنه الخوف، ويشحذ همته:

- أنت راجل يا إبراهيم ..
اوعى تنسى الكلام بالإشارة من غير أيتها صوت لأحسن نتكشفوا وتبقى وقعتنا مطينة.

ثم غمز ثالثهم هامسًا بما يخلع عنه حالة الجمود التي لا تنفك عنه:

- نط أنت الأول وأنا وراك، وإبراهيم هيخلي باله .. ماشي ..

يبادره إبراهيم في رعب وقشعريرة بدن، بما يشبه البكاء:

- والله أنا خايف يا عرفة ..
أمانة ما تسيبنيش لوحدي وحياة أبوك ..

يقتضب جبين الغلام مكفهرًا حانقًا ثم يحملق فيه مجحفًا ضاغطًا على أضراسه، وكأن الكلام تجمد من على لسانه فلم يجد نفسه إلا ويده تقع على الصبي صافعًا إياه غير مبرح في الصفع، الأمر الذي جعل الصبي تحت وطأة الاستسلام المهين يلتزم الصمت مطرقًا أذنيه جاحظًا عينيه، وإن غلب عليه الفزع والخوف، إلا أن وقع المسئولية تحتم عليه أن يركن للهدوء أملًا في النجاة.

يقفز ثالثهم معتليًا جدران أحد بيوت القرية الذي لا يرتفع كثيرًا مما مكن له السهولة واليسر في أن ينجز المهمة الأولى، وهي الولوج داخل البيت والمكان ساكن سكون الليل ..

أما عرفة فيترقب الأمر بالخارج بعينين لا يفارقهما إعصار الترقب والحذر، ثم يهم بحركة سريعة خفيفة لا تحتمل الخطأ ريثما يلحق بثالثهم في التو واللحظة داخل البيت، والصبي يتابع ذلك عن كثب ويراقب الطريق بعين يقظة وقلب يستعصي عليه الاطمئنان،

كانت هذه هي مهمـــة الصبي التي خـول بها، بيـد أنه سرعـــان ما آلمه الوجـل وصب على جســده عــرق كالسيل، ثم انحسر إلى الوراء قليلًا في خفيـــة مستجلبًا في نفسه كل الأدعية التي يعلمها ومستحضرًا نداء الله:

- يا رب استرها معايا ..

كيما ينجـو من هذا المأزق الصعـب، متمنيًا أن ينفتـق الصبـاح عليه وهو في مأمن بعيـدًا عن الأنظـار، ثم عاجلتـه دمـوع الرهبـة والألم لا سيما عنـدما يغـزو سكـون الليـل أصـوات تحطم هدوءَه وتبعث في نفس الصبي مزيدًا من اللوعة والخوف، فيخيل إليه هواجس الفتـك به، ثم يحبـس أنفاسه ويحاول أن يصم أذنيه عن وقع تلك الأصوات التي تكاد لا تنقطع ..

أما الرفيقـان فقد تم لهما الاجتمـاع داخل البيـت منسلّين هاجمين في خفية، باحثين عن خبيئـة ينعمون بها، وتفي بإقدامهما على ذلـك الفعـل، ثم تنعكـس في أعينـهما حركات متتـابعة كيما يتمكنا في عجالة يغالبها الستر في انجـاز ما عزما عليـه، ولم يطل الوقت بهما طويلًا فقد استطاع الرفيقان أن يسرقا من البيت قوتـه، إذ لم يَحُلْ بينهما وبين مبتغـاهما شيء، ثم جعـلا يتفرســان وجه بعضيهما بإشارات تنم عن الظفـــر وإدراك الغنيمة من البيت الذي يعلمان حدوده والطريق إليه جيدًا وبالأخص عرفة ذلك الغلام الجاف المتمرد تمرد المنبوذ، المتشرد

تشرد البائس، فقد ألفى نفسه يتجرع مرارة وألم البؤس والتشـــرد والتسكـــع في الطرقـــات مذ أن تـــرك أبوه (حكم الله) أمه (نعمات) بالهجر أولًا، ثم أتبعه الانفصال الذي لا رجعة فيه من سوء خلق أمه وكفرانها العشير، فقد ملها الزوج وبغض عشـرتـها، فلم يجد الابن عرفة ساعة ذلك من يشعـل له نورًا يضيء له طريـق الحياة ويأخذ بيده نحو الاستقـامة، لذا ضل الطريق تحت وطأة الإهمال من كلا الوالدين، فأصبحت الأم لا يعنيها أمره، وأضحى الأب لا يشغله همه، فتركـــاه لسطوة الدهـر يسبح مع تياره تارة، ويعانق آلامه تارة أخرى.

يا لك أيتها الأقدار .. تقلبيـن الحـوادث كيفما تشـائيـن وتمنحيـــن الرضـــا لمـن تستهـوينـه، وتمنعينـــه عـن المحتاجيـن !!

هكـذا ازدرد الصبي إبراهيم وجلـه مبديًا العجـب مـن قسوة الأيام عليه، فقد ألفى نفســـه وقد طـــال به المكث على مقربة من البيت الذي هو مقصد السرقة، وآلمه أن يكون جزاء صـاحبه الخيِّـر الجـواد هذا الجـزاء من السرقة والنهب، لائمًا نفسه وهو يبتلع ريقه:

- أنت سافل وردي يا إبراهيم ..
أيقـــابل العطـف عليـك وعلى أمـــك وأخواتـك بالنكران والسرقة والنهب ؟!

كيـف ستنظر في وجـــه العم أبو النور عنـــدما يبــادرك بإحسانه مرة أخرى ؟
يا لك من حرامي خسيس !!

ثم صمت قليلًا وتمالك نفسه، وشهق شهقة ملأها الجزع لكنها أعادت له التفكير والتدبير للخـلاص من هذه الليلة دون أن يذهب عن خــاطـره إشفاقه الذي يكتنفه الضجر على أبو النور البقال الذي طالما يسعد مجالسيـه ببشاشة وجهــه وطيب أخلاقه وكرمه المعهود، دون أن يغــالبه حنــق أو ينــازعــه تأفــف، وهــو لا يقــدم علــى ذلــك إلا حرصًا على رضا الله وتقربًا إليه بصنائع المعروف ولا يفوته كيل المحنة والعطف كيلًا على أهل القريـــة، دون أن ينتظر لذلك مقابلًا أو جــزاء، بل يجـد في ذلك متعة يعقبها الرضــا ولذة لا تدانيــها لذة، خـاصة عندما يخلو إلى نفسه وحيدًا:

- لا عيل ولا تيل يا مسكين !!
كفاك محبة الخلق يا أبو النور يا طيـب، وأهم في الآخر كلهم ناسك وأهل بلدك.

ثم يضحك في نفسه مبتسمًا ابتسامة مطمئنة، وهو يتذكر أحد الصبية عندما يناديه في براءة:

- يا عم النوول يا عم النوول هات سكوته.

ساعتها هز رأسه مستسلمًا بالرضا:

- الحمد لله على نعمة الصحة والستر ..

ثم ألفى نفسه يقبض براحتيه على وجهه الممتلئ بعض شيء مسترجعًا بذاكرته مواقفه مع من حوله من سكان القرية إذ لا يكف عن المؤازرة والمؤانسة لهم، يمازحهم بفكاهة معهودة، ويواسيهم ويجاملهم كثيرًا، وهم يحسنون عشرته ولا يملون جلسته، بل يتندرون بمقاله ومحاكيه في جلساتهم إذ قلما تجد جلسة تختضب بالضحك والممازحة إلى حد الانهماك والاستغراق إلا وكان لأبو النور البقال منها نصيب.

استحوذ عرفة ومرافقه على ما قدر لهما، ووقع تحت أعينهما وطالته أيديهما من بيت أبو النور وبقالته، ثم خرجا من حيث ولجا، بيد أنهما بعد أن وطأت أرجلهما البراح بالخارج لم يلمحا إبراهيم، فبرقت أعينهما في فزع واضطراب، لكن مع تفحصهما المكان في ارتياب حذر وجداه مختبئًا تحت أحد الجدر مرتعدًا، تكاد قداماه لا ترتفعان عن الأرض، وكأنهما التصقتا بها غير أنه سر بقدومهما مطمئنًا اطمئنان الملهوف لحظة إغاثته، فأقبل عليهما في همة تتلبس بعدم الانشراح ثم رنا إليهما بصوت مخنوق:

- خلاص خلصتوا ..
يالا بينا لأحسن أنا خايف قوي يا عرفة ..

ابتسم الغلام ابتسامة ملأتها الشفقة على هذا الصبي لمَّا رأى الخوف يرتسم على وجهه، مما مكّن للصبي أن يستقر يقينه في هدوء جراء ابتسام الغلام له، وتدافع دم الانشراح إلى وجهه لمَّا جذبه عرفة منسلتًا به بعيدًا عن مكان السرقة وهو ينصاع وراءه مهرولًا غير عابئ بحيز الوقت، إذ الليل ما زال في خفوته باسطًا سطوة ظلامه على المكان.

مر الوقت على إبراهيم كما الدهر عندما يدير ظهره وينزل نوائبه على أملٍ يتوسم فيه الخير، فهو لا يستوعب أنه نجا من ليلته الكئيبة هذه ثم أخذ يدور في خلده ما يثير الغرابة حد التساؤل:

- مين هو الشخص الذي كان ثالثنا، وشاركنا سرقتنا ؟
أنا لا أكاد أتذكر ملامحه !!
يبدو أنه غريب من خارج القرية ..

غير أن إبراهيم بدت على وجهه معالم السخرية، هازئًا بذلك الشخص وهيئته، ثم اغتصب ابتسامة وسعت شفتاه، لكنها تشي بالرضا، قائلًا في نفسه:

- سيبك أنت .. أهم حاجة دلوقت إنك بقيت ناشف وقلبك قوي، وتقدر تتحمل أي شيء مهما كان ..

يالا أهي ليلة وعدت، وياما هيكون في ليالي تاني
يا وحش الليل ..
هو اللي يمشي مع شنة يسلم .. ؟!
ما هو لازم هيبقى زيه !

حقيقة أنا لست أشك في أن عرفة يحسن اختيار مرافقيه دون أن تتوه نفسه في الخطأ أو يعاجله سوء التقدير، وأغلب الظن أنه استطاع في حنكة أن يستميل ذاك الشخص الذي يجهله إبراهيم إلى مملكة التمرد التي تستهوي ميوله وتغلب على أفعاله دون عناء أو مجهود، فالاحتياج وحده هو الذي جمع مسعاهما، ومصلحة كليهما هي التي جلبت التقارب بينهما، بيد أن ذلك الشخص كان يؤمن بينه وبين نفسه بأن طريقه من الممكن أن تسير في اتجاه غير الذي يسلكه مع ذلك الغلام المتمرد حد النبذ من خلطائه، لأنه مدفوع بدفء الأسرة وإرادة التغيير حيث يوقن أن حياته هذه لن تدوم طويلًا على ذلك النمط الذي بدأ يجلب له الويلات ونكد الحياة، وسخط الأم التي كثيرًا ما تؤنبه على فعاله وتعنفه على تأخره لساعات تأخذ من الليل جله، ومن بدايات النهار استقراره، خاصة عندما يجوس أبوه بعينيه باحثًا عنه فيجده غاضبًا خالدًا في نوم عميق الأمر الذي يجعله يستشيط غضبًا فيصب عليه سيلًا من السباب المتواصل، وتحوز الأم نهرًا لا بأس به من شتائمه التي تعف الأذن عن سماعها، فتتقدم الأم نحو

الابن ثم تهمس إليه بطرف خفي لحظة استيقاظه بغية أن يتنحى بعيدًا كي لا تطاله يد أبيه العابس مكفهرًا من فعاله، ثم تستمر هي بعد تنحيه عن الأعين في وصلة من الصراع الجدل إلى الحد الذي لا يجد الأب أمامه غير أن يكظم غيظه، ومن ثم التسليم بالأمر الواقع ممسكًا عن وطيس الجدال دالفًا خارج البيت يغمغم بعبارات من اللعن والأسى، قائلًا:

- عيقي وفيقي فيها أنت هو يا مرة يا بت الكلب.

أما هي فتذهب غير متباطئة إلى حيث مكوث الابن وجبينها يتفصد عرقًا، وقلبها يختلج بالفرح من كونها كفت الزوج عن عقاب الابن.
تبتسم في وجهه ابتسامة يسيطر عليها الاقتضاب غير أنها تنم عن الشفقة ثم الغيظ وتبادره قائلة:

- تعال يا نص الدنيا، يا تاعب قلبي معاك ..
ميتى يا واكل أمك تهدى وتعقل وتعرف الصح من الغلط ؟!

يسر الابن النداء في نفسه، وقد اعترى وجهه انفعال شديد ثم يند عنه صوت لا ينبئ عن سرور ويلوح منه كراهة ما سمع:

- قلت لك ميت مرة ما تقوليش نص الدنيا !
أنا اسمي جابر .. جابر .

تضع الأم يدها على جبينها، ثم ترفع رأسها وتحدجه بنظرة تكتنفها الحيرة أو الغيظ أو كلاهما قائلة:

- جابر ولا نص الدنيا .. كلاهما هم قد ابتلينا به.

يرمقها الابن بنظرة يائسة وعيناه يتطاير منهما الشرر لكنه مضطر بدافع الوصل إلى الود بسبب لم يفصح عن شعوره الحانق تجاه غلظتها الموبخة له، غير أن الأحداث والذكريات الموجعة أخذتا تجولان في نفسه إلى الحد الذي جعل عينيه تضيقان من وقع التفكر والتأثر تحت وطأة الإحساس بالمرارة والألم ..

تذكّر أباه وهو يقسو عليه كثيرًا دون إخوته بالضرب والاستهزاء تارة، وبالتعنيف والحرمان تارة أخرى إلى الحد الذي يستعصي معه النسيان ويبعث الشيطان أن يدخل من مدخل واسع في خيالاته، ويسول له التمرد دونما خوف أو رهبة من أحد.

ثم ينحو به التذكر الموغل في الأسى لكن بشيء يغلب عليه الإشفاق على أمه التي ترتضي العيش في ظل هذا الأب المكدر المعيشة، الشحيح المعاملة، الحريص على الدنيا حد الإعدام والتقتير على الزوجة والأبناء، مما يجعل الأم تستحل لنفسها وبنيها في خفية من وراء زوجها ما استطاعت يدها أن تطاله ..

ولا يذهب هوى نفسك بعيدًا أيها القارئ، وتتخيل ما أستبعد أن أتخيله أنا، فهذه الزوجة تحت وطأة الحاجة وسعادة الأبناء تجد نفسها مرغمة لأن تسلب في خفية من زوجها ما فيه هناءة أولادها، فهي مرة تبيع شيئًا من مدخرات البيت التي إن خفيت لا يسبب فقدها أي فراغ أو مبعث للسؤال، ومرة أخرى تجدها تبيع بعض علف الماشية في غير وجود الزوج وبمعاونة الأبناء، لا سيما جابر، قائلة في دهشة تدفعها الحمية المعبقة بالحذر:

- ما هذه العيشة التي نحياها ؟!
كيف نكون في كل هذا اليسر والسعة من الرزق ونعيش معيشة المعدمين ؟!

أما جابر فبمجرد أن خط شاربه وظهرت عليه يفاعة الشباب ثم قادته حياته إلى الاختلاط بالقرناء، وكان عرفة من بينهم، سعى جابر لأن يحذو حذوهم وينتهج طريقهم تحت وطأة التقتير والتكدير الذين ألقيا بظلالهما عليه داخل أسرته وحري بمثل من يتخذ عرفة قرينًا أن يكون مثله، حيث الصديق خل لمن يعاشر، وعرفة مجبول على التمرد، وخليق بمثل هذا أن يفعل كل ما يتاح له أيًا كان المتاح.

جابر هذا الذي إن رأيته رأيت أمامك ما يثير في النفس الاستهزاء حد الضحك من أول وهلة، فهو نحيف البنية

ذو قامة تنحو نحو القصر، عليها رأس غليظ، يعلوها شعر كثيف متداخل حد التجعد، وأذنان كبيرتان تبرزان من جانبي وجهه، وعينان صغيرتان غائرتان بعض شيء، تبدو عليهما الحدة التي تشي بالذكاء، ويلامسان الاستهزاء والضحك عليه من مخالطيه الكثر، غير أنه مع كل هذا تجده متمكنًا من بديهة الرد والتعامل مع أي موقف عابر أو مقصود يتعرض له بخفة ظل ودعابة تروق لمجالسيه أو الهازئين به، فيحلو لهم الاحتكاك به ومنادمته قصد التسلي والتندر بفكاهته العفوية.

قد تكون حالته هذه نابعة من متاعب يقاسيها، فهو يسري عن جسده المعذب ونفسه المحبطة كما تخيل له نفسه، ويقنع هو خياله الشارد أن أباه بقسوته وحرمانه لهم حد الشح عليهم هو سبب ألمه ومعانته، فحالته الداعبة المسلية مع الندماء والجلساء لا تعكس أبدًا ما يدور في خلده ويستره في غياهب عقله، إنما هي تدفع عنه في لحظتها ويلات العناء الذهني، وتفرج عنه الهم الذي يختلج في صدره والذي لا يبيح به لأحد إلا لذاته في تمتمات اعتاد عليها في كثير من الأحايين.

تجده عندما يختلي بنفسه في أية لحظة يمر فيها بضيق جراء عصيان أو تمرد على والده في مواقفه الكثيرة معه، يقول في شيء من الحنق والضجر وبوجه مكفهر عابس:

- بكرا تغور في داهية ولا مصيبة ..
هتموت وتسيبوا لينا وراك يا راجل يا قذح يا ابن الكلب .. ينعل الأبهات اللي زيك كلها ..

هكذا تم لهذا الغلام جابر أو نصف الدنيا - سبل تشكيل احتياجاته والعيش في محيط أسرته وأقرانه، فهو يتعايش مع الجميع أيًا كان التعايش، غير أن بواعث نفسه الآمرة تغالبه آذنة بمصير حتمي له، أيًا كان المصير، فما ساقه صوب طريق عرفة إلا العوز الشخصي ومطالب النفس، في الوقت الذي يجد أباه في سعة من العيش ورحابة تفضله على كثير ممن حوله من أهل القرية ..

وحقيقة ما قفل به نحو السرقة إلا أن أمه فتحت عينيه أول ما فتحت عن غير قصد منها، دافعة إياه نحو سرقة أبيه غير مكترثة جهلًا منها بما سيؤول إليه حال ولدها، بل في أحيان كثيرة تبرر له ذلك الفعل وفق ما يتراءَى لها، فبدأ الابن يحل لنفسه ساعة احتياجه ما تطاله يداه من مال أبيه تارة، ومن أقوات الناس أخرى، علمت أمه أم لم تعلم.

ولكي لا ننسى أمر تلك الليلة التي اجتمع فيها الغلامان عرفة ونصف الدنيا مع الصبي إبراهيم على بيت أبو النور بقال القرية، تراني أجد أن الغلامين قد استحوذا على جل ما غنموا، وتركا لهذا الصبي اليسير

الذي يفـرح به ويرضـي غرورهما، فالصبي لا يملك حق الاعتراض أو حتى مجرد التفكير في المناقشة، بل سره المسكيـن ما غنمت يداه دون تعب مضـن أو جهد معضل، فهي المـرة الأولى التي سينعـم فيها بشيء من المـال يفـوق ما كان يتحصـل عليه من كده في الحقـول أو عطف الناس عليه بمراحل كان كثيرًا ما يحلم بها.

وتمضي الأيـام في طريقـها تعبـث بالصبي وأسرته، والصبي وأسرته يعبثـون بها في محـاولة التغلب على أهوائها ومكائدها، يمرون بأحلك الليـالي وأنغص الأيام تارة، وبلحظات السعادة المحفوفة بالنعيم أحيانًا أخرى.

ومع تقلبات الزمن ومعترك الأيام بلغ الصبي طـور الشباب وارتسمت عليه علامات اليفاعة وكأنه سبق من في مثل سنه، حيث اشتد ساعداه، وعرض منكباه، وخط شاربه وهو ما يزال في مزاملة من يزامـل من أقرانـه الذيـن يستظـل بظلهم ويحتمي في تمـرد المتمـرد منهم، بيد أن الأمـر قد تغيـر كثيـرًا، فقـد أصبـح إبراهيم يضارعهم ويحاكي فعالهم متمكنًا لا مقلدًا، تهيـأت نفسه لأن يكون ندًا للجميـع بمن فيهم عرفة، بعد أن كان تبعًا وظلًا له.

تغيـرت حال الأسـرة بعض شيء إلى الحد الذي جعـل بعـض أهل العطـف والإحسـان يغضـوا الطـرف عنهم كافين عطفهم وإحسانهم، راجيـن به غيرهم ممن تكتظ

القريـة بهم من أهل العوز والحـاجة، وإن كان الخيـــر والإحسان ما يزالان كما هما، يعكسان حال هذه القريـة ومعيشتها، غير أن إبراهيم هو الذي تأبى نفسه أن يقبل إحسان المحسنين من أهل الخير الذين كثيرًا ما واسـوه وساعدوه، إذ تكتنفه الغيرة والاستياء، ويعتريه الضيق والحنق حد الإيذاء لأمه أو إحدى أخواته متى شـاهدها أو شاهدهن أو حتى نما إلى سمعه أنهن قبلن عطفًا أو إحسـانًا من أحد، خاصة بعد أن شب وصـــارت الأيام بحظوظها نحوه كما يخيـــل له، فالحيـاة بعد أن كانـت كئيبة منغصة تسير ببطء، أصبحت تأخذهم في ركابها، فهو أصبـح يغـل عليهم دخـلًا معقولًا، والأم قد راجـت تجارتها الكـاسدة إلى حد كبيـر، فكثر مبتاعيها وزادت الأصنـاف التي تقدمـها لهـم، بيـد أنـها تكتـم في نفسها همومها وأوجـاعها – خاصة تجاه ولدها الذي لا تعـي تصرفاته، وكأنه بئـر قـاحل لا ينضـح بمـاء أبـدًا، فهي تتوجس خيفة من فعاله لكنها لا تستطيع أن تبوح له بما يختلج في صدرها من تساؤلات غير مفهومة، قائلة في نفسها على غير ارتياح:

- لِمَ كل هذا الجزع والخوف ؟!
دعيه .. فهو لم يعد صغيرًا.

ثم تند عنها آهـة تنم عن أمنيـة عميقـة تكتنـز أعماقها الأمومية:

- ليته يشعر بقلب الأم ومدي الحرص عليه، مهما حصل فهو ابني الذي لا سبيل إلا أن أحادي عليه.

ثم انتابها شرود مفعم بالأسى مناجية نفسها:

- قلب الأم (علق) مهما تأسى عليه وتجافي بردو بيسامح.

يا لك من عاتٍ جبار أيها الزمن، تلقي المحبة على غير رغبة في قلوب أناس لا يستحقونها، وتنزعها من قلوب أناس القلب في أمس الحاجة لأن يشعر بمحبتهم وسعادتهم، لكن هذه هي الأقدار، تحرك الخلق لا كما يشاؤون بل وفق ما ترسمه من خطى قد لا تأتي على هوى كثير منهم، خاضعين مستسلمين على غير رغبة، مذعنين حد الانقياد، تتملكهم الرغبة في حمية أن يتجاهلوك، راسمين خطاهم وفق مقتضيات حاجاتهم وميولهم أيًا كانت هذه الحاجات أو تلك الميول، وإن كانت عبثًا أو تعارضت مع مشيئتك إلا أنها ترضي نفوسهم حد الارتياح.

الأسرة عرفت طريق الطهي لا لمرة موسمية كما اعتادت، بل لمرات متعددة تتخللها السعادة المرضية للأم، وتزينها ابتسامة البنات حد الفرح والانتشاء عندما يروق لهم ذلك.

أما إبراهيم فيشاركهم حالهم في غبطة نفسية داخلية، لا تعبر عنها تقاسيم وجهه، إذ أنه ومع مرور الوقت وتوالي الأيام بخطوبها تجد أن ألم نفسه ومبعث ألمه تجاه أمه ما يزال يعكر صفو سعادته خاصة عند وجوده بين أسرته، والأم تعي ذلك جيدًا، حريصة كل الحرص لأن تزيل هذا الألم عن ابنها ولو بالود وعدم تكدير صفو وجوده بينهن، ولكن أعياها ذلك أشد العي، قائلة في نفسها:

- أعمل إيه ؟!

لعل الدهر قد يصلح ما أفسدته النفس الخاطئة.

أراهم الآن وقد دخل عليهم إبراهيم محملًا بما غنمت يداه والأم يساورها الفرح، ويزايلها التساؤل معتسرة القلب، إذ همت بالكلام مرتسمة على وجهها دهشة فطن إليها الابن:

- إيه دا كله .. إيه دا كله !!

لم يدعها إبراهيم تكمل ما أرادت أن تقول، فنظر إليها نظرة مجحف وكأنه غير عابئ بكلامها، ثم قال بنبرة جافة:

- أنا بشتغل وأتعب وبحاول على قدر استطاعتي أن يكون الكل في سعادة وراحة بال، ولا يحتاج أن يمد يده لأي حد ..

سكتت الأم ومصمصت شفتيها من جراء كلام ابنها ثم صمتت قليلًا بعد ذلك همت قائلة والدموع تعاجلها:

- براحتك يا ابن بطني، أنا تعبت وشقيت عليك وأنت حتى مش حامل لي أي كلمة .. الله يسامحك ..

وأخذت تكبح جماح ثورتها ثم استطردت الحديث في صمت عاتب:

- قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عليَّ حجر.

خيم الهدوء بسطوته على المكان دون أن ينبس أحد بكلمة، في غير حركات البنات أثناء سيرهن أو ساعة النداء على بعضهن وقت انشغالهن بشؤون البيت، بهمس تارة أو بصوت يعلو وينخفض تارة أخرى.

مازحت إحدى الأخوات شقيقتها بدعابة جعلت إبراهيم وهو يراقب فعالهم ومزاحهم تفلت منه ابتسامة التفتت لها الأم وانفرجت بها أساريرها، ودعت صابرة كبري أخواته من أن تحادثه حديثًا يؤنس جانبه، رغبة منها أن تضفي على الصمت المكدر للأسرة البسيطة شيئًا من نسائم الود وطرفًا مما يجلب الهناءة والفرح، وكان لها ما رمت إليه.

ثم بعد أن جهزت وأخواتها الطعام جلس خمستهم حول طبليتهم التي تغيـرت، فقد عمرت بمطعوم المرق، ولك عزيـزي القارئ أن تتخيل حجم أمر كهذا على أسـرة ظلت أمدًا طويلًا لا تعـرف للطهي طريقًا إلا في أحيان قليلة عندما يتـاح لهم، ومن إحسان المحسنين في أغلب الأحاييـن.

لم يطـل الوقـت حينذاك كثيـرًا، فبعـد أن تم الشبع والارتـواء للأسـرة جميعها استرخى إبراهيم ببدنـه في مكـان جلوسـه متعجلًا استقـرار عينيـه في مرقد النوم ريثما يبعث لنفسه شيئًا من الطمأنينة متمنيًا ألا يفيق من غفوتـه، ثم بعدها أصغت آذان الجميـع إلى صوتٍ قَرَعَ صـداه هدوء المكان خارقًا بصخبه حجـب الزمان على غير موعد، بل وشتَّتَ اطمئنان إبراهيم بغفوته، فتساءل إبراهيم مهتمًا في اكتراث غير معهود:

- ما هذا الصوت ؟!

نظـرت الأم إلى بناتها ثم رنت في لمحـــة تجـاه ابنها بنظـرة تستكشـــف من خلالها مدى حـــرص ابنها على النظـــر إليـــها وكأنـــها في الوقـت ذاته تريد أن تحادث الموقف بما يجول في خـاطرها لكن ابنتها صابرة حالت بينها وبين إرادتها، فعاجلت بقولها:

- أظنه صوتًا ينم عن مناسبة سعيدة، أكاد أسمع بعض الزغاريد تزف الفرح والسرور بين ارتفاعها وانخفاضها.

ثم أكملت دون تروٍ أو تفكير:

- أظن الصوت آتٍ من ناحية بيت رضوان ووو ..

فطنت البنت لكلامها فتداركته بقولها:

- أو من أحد الدور التي تجاوره ..

حملقت الأم المنكسرة في ابنتها، والتي سرعان ما أمسكت عن الكلام وكفكفت شهوة استرسال الحديث لديها، والأم قد أصابها شيء من الامتعاض حد الضيق لكنها لم تبح بشيء وآثرت الصمت.

أما إبراهيم فقد أطبق عليه الوجوم، ثم رفع حاجبيه ملتقطًا أنفاسه في شيء من الحيرة والضيق الشديدين وتملكته رغبة عارمة في أن يخرج بعيدًا عن البيت، بيد أنه أخذ يراقب عن كثب حركات ولفتات أمه، وقد استحضر في ذهنه أفاعيلًا كدَّرت نفسه السوية، وظن أنها قد مضت، بل كثيرًا ما حاول أن يتناساها لكن الأيام تقلبها بين فينة وأخرى.

همَّ إبراهيم متكاسلًا متباطئ الرغبة، مرتميًا في أحضان الشرود، مسيطرًا عليه الوجوم حد الخمول.

تقدَّم شيئًا فشيئًا إلى أن تجاوز البيت، وهو لا يدري إلى أين ستحل به سفينة خروجه، غير أنه عزم في قرارة نفسه أن يستطلع حقيقة ما يدور حوله، لعله يجد ما يسكن فؤاده الداهش، ويرفع عنه تنغيص مزاجه المعذب.

قابل أول ما قابل جمعًا من أهل القرية يتسامرون في ضحك هازل .. وقف إلى جانبهم ولا تخفي نفسه شهوة الظفر بمعرفة جانب من أحداث القرية، لا سيما الصوت الذي سمعه وأسرته، وكان سببًا في خروجه.

كانت أصواتهم ومحاكيهم تناغي نفسه بالحديث مما دفعه أن يسلك معهم طرف الحديث متصنعًا ابتسامات زائفة على كل ما يستجد من تنادرات يتقاذفها الجلوس في ظل الجو المتلبد تغلفًا ببرودة الشتاء القارصة، وقد كان له أثناء الجلسة ما أراد، ففطن من تناقل الكلام بين الحضور أن الحاج رضوان ظفر بمشيخة القرية بعد أن أعد العدة لذلك مع أهل الرأي ومالكي القرار من سدنة البوليس في المركز، الذين تغريهم الهدايا والقربات وكأنهم ينتظرونها، فيساندون من لا يستحق المساندة ويوزعون عطاياهم الخدمية على سبيل المجاملة للمتقربين منهم، ورضوان واحد من هؤلاء، حيث استطاع أن يسلك هذا المسلك الذي سعى إليه طويلًا وظفر بما كان يخطط له منذ أمد.

ولا يقف أمر السرور لديه عند هذا الظفر المبهج، بل تخطاه لحدث يزيد مسرة ويضرب بأسباب عظيمة في استدامة الأفراح، فعامر ابنه استطاع أن ينفلت منسلًا من قطار الجهادية الذي لا يتخلف عنه إلا أصحاب الحظوة.

أجل، رضوان في هذا اليوم في غاية السعادة والفرح وخليق بمن في مثل نشوته وإشراقه المتأنق أن تنصب الأفراح عنده أيامًا ولياليٍ عديدة، لا يومًا واحدًا ولا ليلة واحدة !

غير أن إبراهيم لم يتركه شيطان التفكير لحظة، والذي جعله يشرد كلما تداول اسم رضوان بين الجلوس، فقد أُيقظت في عقله شراهة الانتقام، وتلبس قلبه نشوة تنغيص أيام رضوان وليالياه، ماضيًا ساعيًا في سبيل ذلك كل السعي، وكأنه شغله الشاغل.

أما رضوان فما زالت دواعي السرور بالزغاريد والأصوات المبتهجة ترفرف بصداها في سماء القرية الهادئة معلنة عن ابتهاج هذا البيت، فجل أهل القرية مجتمعين لديه ما بين مهنِّئ لرضوان ومقبِّل لعامر، والأم عواطف تغمرها مراسم الغبطة، ومظاهر النعمة التي تحيطهم من كل جانب محتفية بكل من يأتي إليها مستعينة بابنتها وبعض الجارات ممن تألفهن وتزوي إليهن بالزيارة والقرب ..

تُقدِّم حلو الشـراب للمهنئيـن - على كثرتهم - في رضا وغبطة محفوفين بابتسامة عريضة تنم عن الترحيب حد الأنس، وعن أريحية حد العطف.

أما إبراهيم فقد ثارت لديه ثائرة الحقد، وغمـره طلسم الغيرة من عامر والانتقام من رضوان، لكنه بدا محاولًا جاهدًا أن يتمالك نفسه أمام مجالِسيه، ثم همَّ واقفًا على غير استئـذان، ومضى في طريقه سائرًا ببطء لا يدري أين وجهته ..

أخذ يسترجـع ذكريات أيامه وأعوامه الفائتة، ثم يجـول به خاطـره لحظـات خاطفـة في مرمى أحـلام تتهيأ له حتى وكأنها تداعبه:

- لِمَ لا أكون أنا في هذا الموقف ؟!
هل سترتـب لي الأقدار عزًا وجاهًا يحميـاني من سطوة الزمن وشماتة الشامتين ؟
لك الله يا إبراهيم !

قـال ذلـك بنبـرة يشـوبها الاستخفـاف والسخـط على الأقـدار، ظانًا أنها تعبث بـه، بيد أنه تفاجأ أثناء سيـره الذي لا هدف له بأنه يتاخم بيت رضوان.

تباطأ في السيـر وكأن قدماه قد أثقلهما التعـب، أراد أن يرجع قافلًا من حيث أتى، لكن أمـرٌ أخذ عينيـه وشـد انتباهه، وجعل قدميـه تسرعان الخطو ولكن سبر أغوار

نفسه في شيء من التؤدة والتأني، حتى لا يفوته روعة ما نظرت عيناه .. ظل صامتًا للحظات ثم تمتم بصوت مسموع:

- ما كل هذا الجمال .. ما أبدعه !!

حيث لمحت عيناه ظلًا نيرًا بدا كالقمر في ليلة تمامه ما برح أن تراءَى له بكامل هيئته وبديع تقاسيمه ..

جمالٌ كأنه شُكِّل على يد صانع ماهر، جسد ممشوق القوام، ووجه كفلقة القمر يتوسطه أنف مكور تكويرًا لا يعيبه، وعينان واسعتان مكحولتان في حدود اللطف، تتردد على خديه الموردين ابتسامة عريضة آثرة تتعلق بقلب كل من يسمعها وهو يسترق النظر إليه في انتباه مشوب بالارتياح، ثم حدث نفسه ثانية:

- ربي .. ما كل هذه الروعة التي تزين هذا الجسد ؟!

وقف في مكانه يسترسل الحديث، مبديًا العجب كل العجب من روعة الفاتنة التي رآها حتى أوشك أن يتمادى في المسير حد الولوج داخل البيت، ولكن أنَّى له ذلك، فأخذ يرنو بسهام نظراته الفاضحة، وسرعان ما تقلص وجهه واقتضب جبينه منزعجًا، فقد اختفى ذلك الجمال الساحر وكأنه شهاب ألمعي زين السماء في ليلة حالكة الظلام.

أعلم قارئي أنك تستأنس بالمحكي وفـق ما يخيـل لي، ويتراءَى لي الآن أنك تعمـل ذهنك مفكرًا في شيء من العجب:

- من تكون صاحبة هذه الطلة البهية، وهذا الجمـال الساحر ؟!
أهي من المهنئين القادمين إلى بيت رضوان، أم من أهـل داره المستقبلين للمهنئيـن على ما كـان من أمر المسرة والابتهاج ؟!

فأنا أعلـم أنـك لا تخـلو نفسـك من ولـع معرفـة كـل التفاصيـل، وأنا لا أدع فرصـة في أن أزيـل أي إبهـام يسيطر عليك أو يحاير استئناسك بالمحكي.

الوجـه الملائكي النضـر الذي ذهـل إبراهيم، ودعاك للحيرة، إنْ هو إلا وجه حنان ابنة رضوان التي أقل ما توصف بالبراعـة حد الاستواء وخفة الظل حد الانتشاء، كما لو أنها تفردت بذلك عن سائر بنات حواء ..

لذا لمَّا رآها إبراهيم الذي كثيـرًا ما عانى الحرمان حد الضعـة، انبهـر لأول وهلة ومن أول نظرة واندفـع في وجهه السـرور مبتهجًا خاطره، وخيِّل إليه أن ملامحها العذبة تداعبه، حتى أنه تاه في خيال عميـق جامح لأول مرة، بيد أنه على غير رغبـة منه شيَّعها بنظرة إعجاب خاطفة، لكن بفؤاد يحتضـن اليأس، وعقل يسيطـر عليه

الأسى، فاتجهت أفكاره تجاه التمتع بجميل المنظر ودقة المأخذ، ولم يثنيه عن ذلك إلا رؤيــة شبح رضوان وقد شخــص أمــامه عن بعـد يسيــر وهو يرافــق بعـض المغادرين بعد أن أتم التهنئة له وكأنه كابوس أقحم نفسه في حلم يستلذ به نائم.

برقت عينا إبراهيم عند رؤيته، وقد غشيت وجهه الحدة حد الازدراء، وعلت عيناه نظرة حقد ماكرة مُطبِقًا على أضراســه، أما رضوان فلم يعره اهتمامًا وكأنه لم يــره ودلف مسرعًا إلى بيتــه.

- ما زالت الحيــاة تمنحك وطيسها وتقلباتها، يا ابن رضاني وسعيدة !!

قـال إبراهيم ذلك وهو معكــر المزاج، تتلبــس بدنــه قشعريرة لا يدري أسببها برودة الجو أم رهبة الموقف، ثم أخذ سبيله ماضيًا مسرع الخطى، تجوس في نفســه الأحداث البائســة وبعض اللحظات المؤنسة التي تبعث في الأرواح الابتهاج حد الارتياح.

لم يطاوعه تفكيره أن يكمل مسيــره الباحث عن جلسة تغنيــه عنــاء ما يعلق بقلبه وعقله، فرجع قافلًا إلى بيتــه ليجــد أمه على غير عـادتها، منتظــرة إياه في موضــع رقودها متكئة على وسادتها، لم يتطرق إلى جفنيها ملذة النوم.

اعتدلت من اتكائها القلق بحذر مشوب باللوعة وجهد الانتظار، ثم ما لبثت أن حركت جسدها البض جيئة وذهابًا دون أن تحادث ابنها أو تلاطفه فقد آثرت مناجاة نفسها بما يدور في خلدها، وكَفِيَها الاطمئنان عليه بنظراتها المشفقة المتوسلة سلامته ..

رقد إبراهيم في موضع نومه الذي اعتاده، بعيدًا عن مرأى أمه، وقد بسط الليل سطوته بظلامه الدامس، لا تؤرقه برودة الجو ولا الغطاء المتهالك الذي يتخذه سبيلًا أمام صقيع الشتاء، إنما يؤرقه ما يعرض على خاطره من عذابات تعصف به وتقسو عليه.

يحلق بنظره في اتجاه السماء التي تبدو ظاهرة في غير وضوح من هوة تنفتق من سقف البيت، حيث يشعره ضوء القمر في تلك الليلة القمراء بسمائها الشتوية الملبدة ببعض الغيوم بمزيد من التأمل وقليل من الارتياح، لكن تلك العذابات ما زالت تلعب بعقله كل ملعب، وتتيح لعقله التفكير في مصارعة الحياة وشراهة الفتك بكل من يعبث بأمانيه وتطلعاته لا سيما رضوان، لم يغمض له جفن وكأن النوم يجافيه كلما حاول أن ينعم به يأبى النوم له ذلك النعيم ..

أخذ يقلب الأمر من جميع جوانبه آخذًا الحيطة سبيلًا لكل ما يطرأ على باله من مظاهر تشي بتدبير الأمر وإعداد العدة له، يسري في نفسه شعور غامض يتردد

بين الانقباض والبسط، بين الانتقام ثم الخوف، بين الترقب والحذر .. تحدثه نفسه:

- الفرصة تواتيك الآن في غمرة السعادة والفرح اللذَين يخيمان بظلالهما عليه، مهما كلفك الأمر يا سبع !
آن الوقت لِأن تستريح في رقدتك يا رضاني، وتسترد كيانك يا إبراهيم .

ارتسمت في خاطره فكرة قد أصغى إليها قلبه مزدردًا ريقه بين الحين والآخر، لذلك بدا عليه استعجال النهار كيما يعيد الأمر على صديقه عرفة.

غفا غفوته في غير ارتياح، ولما استضاء النهار وقد كُسِيَ المكان بأشعة الشمس الذهبية بعد ليلة شابها تلبد سمائها بغيوم تشي بأن السحب ستزف المطر على القرية، بيد أن شدة انبعاث الهواء كانت حائلًا بين القرية الفقيرة وما كانت ستزفه السحب من أمطار ترهب ساكني القرية.

قام إبراهيم من فراشه خاملًا، ثم أطبق عليه الصمت المتسربل بالكسل وكأنه لا يريد القيام تحت وطأة تقلبات جسده وفكره طيلة الليل.

أما أمه فقد قامت كعادتها كل يوم في صباحه الباكر، وقد افترشت الأرض ووضعت بضاعتها أمام بيتها بعد

أن رصتها في مكانها المعتاد بحرص شديد حتى يتثنى للمبتاعين أن يشتروا منها مثنين على نظافتها وجودة ما تقدمه لهم من خضروات يروق لهم أن يبتاعوها منها، لذا فهي تقبل على عملها في عناية وتقبل حد الارتياح.

تملكتها رغبة قوية في أن تتفحص مكان رقود ابنها بداعي تفقد حالته أو بدافع الفضول .. سألت إحدى بناتها، وقد أسندت ظهرها لإحدى حوائط البيت:

- ما حال إبراهيم ؟

أجابتها ابنتها في هدوء يشوبه الفتور:

- مش عارفة، بيتهأ لي أنه صحا من النوم ..

وبين حديث الأم وابنتها همَّ إبراهيم من رقاده بوجه حانق خالٍ من الإشراق، فعجزت الأم وابنتها عن مواصلة الكلام.

قضى حاجته وتهيأ للخروج، غير أن عدم الارتياح ظل مقترنًا به، لا يكاد يفارقه ..

خرج في همة وانتباه ينمان عن القلق والحذر أكثر من النشاط، ثم قابل أمه وأخته واقفتين بجوار بعضهما في المدخل المفضي إلي فتحة الخروج من البيت، فألقى عليهما تحية الصباح بلهجة استحقت البشاشة التي تكتنفها الحيرة الداهشة من الأم، والرضا المشوب

بالبسمة حد الغرابة من الأخت، ومع ذلك أجابتاه بصوت خفيض:

- صباح النور !

سمعه إبراهيم دون أن يلتفت إليهما مستمرًا في طريقه، جادًا في مشيته، وكلتا يديه قد عقدتا على بعضهما البعض اتقاء برودة الشتاء.

استمر تجوله في القرية جيئة وذهابًا في مواضع اعتاد الذهاب إليها أملًا في لقاء من يبحث عنه، وأثناء مسيره الجاد برقت عيناه عندما لمحه جالسًا في مكان مشمس تحت أحد الجدر، يحلو لأهل الريف في مصر أن يصطلحوا عليه اسم (سهراية) لاسيما عندما يحل فصل الشتاء ضيفًا ثقيلًا ببرودة نهاره وصقيع ليله، لذا تجد كثيرًا من قاطني الريف - كبيرهم وصغيرهم - يبادرون بحجز أماكنهم في تلك السهاري، خاصة التي اعتادوا الاجتماع تحتها في أنس يعكس مدى الحياة البسيطة - في أدنى درجاتها - التي يحياها هؤلاء السكان البسطاء في رضا عجيب تحفه الرحابة المتوسدة بالسعادة المنقوصة، يجتمعون في بعض هذه الأمكنة كيما يتفاكهون أو يتسامرون غيبة أو نميمة تروق لهم، غير أن الصبية يبادرون السبق إلى تلك الأمكنة مع صبيحة كل يوم أملًا في الاستمتاع بقسط أكبر من أشعة الشمس التي يستعذبون دفئها ويستحنون حرارتها، يتناوبون

المرح درجة السباب والتلفظ بألفاظ تحلو لهم ساعة يجدون من يحول منهم بينهم وبين دفء حرارة الشمس التي هي ملاذهم من قسوة الشتاء ..

تراهم عندما تعلو أصواتهم محتجِّين على قادمٍ لتوه بدد قدومه استمتاعهم بالشمس، قائلين في شيء من الحماسة المدججة بالذعر:

- اللي قاعد في ضرايا، تحت أمه بصايا، تحرقها تحرقها، تحرقها في بزِّتها، ويودوه بقور النار.

مما يحدث ذلك شيئًا من الكدر والحنق في نفس ذلك القادم الحائل بين الصبية واستمتاعهم بدفء الشمس فيسارع بالتنحي منعطفًا إلى وجهته التي يتطلع إليها.

لمحت عينا إبراهيم البارقتان المتحفزتان عرفة في ركن يبعد قليلًا عن مجمع الصبية والغلمان، فأشار إليه بطرف خفي، فهم عرفة ما أراده إبراهيم فتنحيا بعيدًا عن الجمع، ثم فاتحه إبراهيم فيما طغى على تفكيره واستأثر منه هناء النوم ولكن في شيء من التذبذب الذي لم يعتاده ..

أنصت عرفة لكلام إبراهيم مودعًا سمعه إياه، مستلذًا بنشوة راقت إليه، ثم بدا عليه الشرود مستطلعًا مغبة ما قصه إبراهيم، ثم أسكن الصمت رتابته على الموقف فعاجله عرفة بصوت يختبئ وراءه الدهاء والمكر:

- هذا الأمر جد عسير، يختلف كثيرًا عن جملة كل ما فعلناه، والعبء سيكون مثقلًا بالرهبة إلى الحد الذي يحتم علينا أن نتمهل كثيرًا آخذين الحيطة والحذر سبيلين للنجاة و...

قاطعه إبراهيم في شيء من التسرع الذي تدفعه اللهفة والرغبة:

- أنت خايف ولا إيه .. ؟!
مكنتش فاكرك كده يا راجل.

أجابه عرفة في شرود:

- مهواش خوف بقدر ما هو حرص، وعلى كلٍ أنا معك ولن أخذلك.

انفرجت أسارير إبراهيم ودق قلبه الانشراح والرضا آخذًا في الضحك ومداعبة الرفيق، ولم يخرجهما عن ذلك إلا انزواؤهما عن الأعين وهما يعدان للأمر عدته متفقين على لزام مرافقة ثالث لهما فيما عزما عليه، مدفوعين بأحلام تمنيهم انجاز المهمة في أسرع وقت دون تأخير أو فرصة للإخفاق.

مضى الوقت وقد حل المساء ساترًا القرية بظلمته، فاجتمع ثلاثتهم لدى عرفة في ساعة من ساعات أول الليل في ظلامه الشتوي، وقد مرت اللحظات عليهم

بطيئة يتلبسها الترقب انتظارًا للحظة الانطلاق، عكف الجميع على التحدث فيما دبروا الإقدام عليه بأصوات هامسة حاذرة، بيد أن العجلة دفعت إبراهيم لأن يدلف خارج البيت كيما يستطلع أحوال المارة، والاثنين قد بدا عليهما الحنق من تصرف إبراهيم المباغت.

رجع إبراهيم من استطلاعه العاجل وقد لاحت في وجهه البسمة، وفي قلبه الطمأنينة، قائلًا:

- القرية تكاد تكون رقدت جميعها ..
يخيل لي أنني أسمع شخير النيام بأذني.

أراد بذلك أن يبث الطمأنينة المتدفقة داخل أعماق نفسه إلى رفيقيه، لكن ثالثهم دعته الحنكة لأن يشير عليهما بالتمهل والانتظار قائلًا:

- لسه الوقت بدري مضيعوناش معاكم.

ثم أشاح بوجهه في اقتضاب وغضب شديدين، لكن إبراهيم لا تطيق نفسه الصبر فتهامس في شيء من الاحتقان مع عرفة:

- قول لأخينا ده حيلك شوية ..
الوقت ده هو المناسب هنستنوا لغاية ميتى .. ؟!

ثم أخذ عرفة يحدق في وجه إبراهيم ناصحًا إياه بما فيه المصلحة النافعة للجميع في شيء من السب المتلبس

بالسخرية، ثم ما لبث أن استجاب لرغبة إبراهيم بعد أن استقبل إشارة من رفيقهما الثالث تؤذن بالخروج.

خرج ثلاثتهم في ساعة متأخرة من جو الشتاء القارص الذي تتلبد سماؤه بظلام دامس يروق للرفقاء الثلاثة أن ينجزوا مهمتهم بين أحضانه.

شقوا طريقهم نحو مرادهم حتى إن تمَّ لهم الوصول رمقهم إبراهيم بعينيه العاجلتين وكأنه القائد، وبدون تفكير أو مهلة من الوقت همَّ بالارتقاء في وثبة يقظة لم تأخذ منه جهدًا لأنه استودعها عناء أعوام مضت عكرت صفو حياته، وما زالت تحرص على ذلك.

تبادل الرفيقان النظرات، ثم همس ثالثهم لعرفة همسة حاذرة مفعمة بالاحتجاج:

- الواكل ناسه شكله هيضيعنا معاه ولا إيه !

طمأنه عرفة بما يسكن فؤاده، قائلًا له بأنفاس قلقة:

- ربك يستر ..

ثم نظرا ببصر حاد قبالة الموضع الذي وثب منه إبراهيم ريثما يتبعانه إلى ما عزموا عليه في همة لا تقل عن جسارة إبراهيم، وإذ بهما معه داخل محل التدبير ومقصد العزم، موقظين داخل نفسيهما الشجاعة ومجابهين الرهبة ومظان الخوف ..

اجتمع ثلاثتهم، ثم أخذوا يبحثون جادين في البحث بين الحذر والمراقبة والحرص في همة ودأب حد اللهفة عن كل ذي ثمن، كيما تطاله أيديهم فيحقق لهم النفع في هذه الليلة العصيبة غير الآمنة، فهي وإن كانت ليست المرة الأولى التي يقع فيها الرفقاء تحت وطأة الترقب غير أن الأمر الليلة يتلبسه الشك في النجاة، لذا حرص عرفة وثالثهم على أن يلوذا بالفرار ساعة تمكنهما من الظفر بما يحقق لهما الرضا والنجاة، أما إبراهيم فكأن الأمر بالنسبة له يتعدى الظفر بما يحقق الرضا والنجاة، حيث بدأت عيناه تجوسان في كل مكان يتمكنان من الوصول إليه، وتند عنه حركات بين الحين والآخر تبعث الخوف في نفس رفيقيه، وتحرك الإصرار داخله على أن يستكمل ما يسعى إليه.

يحادث نفسه في حيطة وحذر يرافقهما الأمل:

- أين أنت يا رضوان .. أيها الملعون ؟!

ثم أخذ يسير ببطء وتردد منسلًا صوب أحد النيام، بعيدًا عن رفيقيه وقلبه مهتزًا بالخوف والقلق، غير أن خبرة الأعوام بعثت داخله ضرورة التشبث بالصلابة، وكانت حافزًا وملاذًا له لأن يستكمل انسلاله إلى حيث يريد، فتغلب على ذلك كله متحريًا الدقة لما يرنو إليه.

أما رفيقاه فبعد جهد جهيد وبحث شديد، قد ظفرا بما يحقق لهما الرضا والكفاية التي تكاد تدخل عليهما أَسْرَ النجاة عن الإيغال في بحث جديد يوهنهما في مغبة عدم النجاة ومن ثَمَّ افتضاح أمرهما، فرجعا في سرعة لا تدانيها سرعة، قافلين من حيث دلفا بعد أن أشارا لإبراهيم بما يوعز بالظفر والخروج إلا أن إبراهيم لم يبد لإشارتهما أي اهتمام، فسرى الشعور بالخوف والقلق في نفسيهما.

بدا على إبراهيم اهتزاز الجسم حد التوتر، وقد صب العرق جسده صبًا، وكأنه قد أصيب بالحمى لكنه لم يترك نفسه لهاجس الرهبة والقلق، فأقبل غير عابئ بأي شيء، لا يحدوه إلا ضرورة انجاز ما عزم عليه، إذ كيف بعد كل هذا التدبير وكل هذه المخاطرة لا يمكن لنفسه مبتغاها ؟!

ثم لم يلبث إبراهيم وقتًا طويلًا حتى تغلبه شعور بأن أحد النيام قد أحس بوجوده، فلف نفسه بعباءة الصمت مستقرًا إلى ركن بعيد مستسلمًا للقدر، ولم يمض وقت طويل حتى أصدقه شعوره ما كان يرمي إليه، فقد أفاق أحد النيام من غفوته بعد أن سعل مرة أو مرتين أتبعهما صوت يشي بقيامه من موضع رقوده ريثما يستطلع تلك الحركات المريبة التي تتردد في بيته هنا وهناك، والتي تخيل له أن وقع أقدام تختلس الخطى في المكان مما

دفعه لأن يفيق منتبهًا حد الذعر، مستتبعًا أثر تلك الخطى، ومترقبًا مصدر هذه الأصوات بل ذهبت نفسه كل مذهب، ثم صاح مناديًا بصوت تردد صداه في أسماع كل من حوله من النيام، نداءً اخترق صمت الليل الهادئ وأفاق عليه الجميع، والليل قد بدأ يتجاوز ثلثه الثاني مخترقًا بداية الثلث الأخير، والرفيقان عرفة وثالثهم قد طال بهم المكث على مقربة من بيت رضوان مختبئين مغمغمين الوجه حتى عن أنظار النجوم، وزاد لديهما الشعور بالخوف والقلق، خاصة بعد أن طاف على سمعيهما ذلك النداء الذي بدد سكون الليل، وينبئ بإيقاظ النيام، فلم يمهلا نفسيهما أية فرصة للمكوث فأشار ثالثهم بإيماءة من رأسه لعرفة، ثم أطلق لقدميه العنان في العدو وأتبعه عرفة بعدها مخاطبًا إياه بصوت خفيض:

- شوقي .. استنى يا شوقي .. استر ياستار .

نعم، شوقي هو ثالث الرفقاء في هذه الليلة، حقيقة أنا كنت أجهله، وبالأحرى - عزيزي القارئ - لك أن تقول أنني لم أشغل فكري بأن أصطلح له اسمًا حتى يأخذ السرد طريقه، ويستطيع الرفقاء التغلب على عناء عزمهم وتنفيذ مرادهم، ولك أيضًا أن تبدي في نفسك ما يثير إرادة دفع الإبهام عنك محادثًا نفسك:

- ما بال جابر، أو نصف الدنيا ؟!

كيف أصبح حاله ؟ ولِمَ لَمْ يكن هو ثالثهم ؟!

أدفع عنك إبهامك بأنَّ عرفة شقي مجبول على التمرد واعوجاج الطريق، وحري بمن ينحى ذلك المنحى أن يكون له من الرفقاء أمثاله من ينصاع إلى مسلكه السيء وطريقه المعوج، حيث كما قيل (الطيور على أشكالها تقع) فمثله لا تحتار نفسه، فإن تخلَّف عن ركبه هذا سارع غيره لأن يلحق به تحت وطأة البؤس أو الحرمان أو الطيش أو كل ذلك.

أما جابر، فقد تغيرت حال الدنيا معه فتخلف سريعًا عن ركب عرفة وطريقه المفضي إلى الشقوة وشذوذ الغاية، حيث تآلف الأسرة وحنو الأم التي هي عماد الأسرة وقوام استقرارها كانا كفيلين لأن ينعم هذا الفتى بدفء تعديل المسار خاصة بعدما شبَّ شبابًا يافعًا مكنه لأن يجتاز طيشه المتمرد، فقد نما عقله وزكا فكره ووجه التوجيه الأمثل من أمه وأخواله وبني عمومته حريصين كل الحرص لئلا يكون من بينهم من يسوء سوءًا يحدو بهم نحو أن يكونوا محلًا للسخرية والمعرة في قرية كقريتهم، قائلين:

- الفرع المايل قطعه أحسن.

فاستجاب جابر لنصائحهم ولم يخيب رجائهم فيه، فعمد إلى إصلاح نفسه وتهذيب شخصه، والبعد كل البعد عن

طريق عرفة المعوج، خاصة بعد أن أقعد المرض أباه وتداعت الأسقام على بدنه الذي كان منتشيًا بالصحة غاية الزهو، وإلى الحد الذي جعله في غفلة أنسته كدر السقم أو مباغتة الموت، فأصبح هشًا طريح الفراش قد فعل هزال المرض به الأفاعيل.

ولك أيضًا أن تتخيل هذا اليافع الذي ولد في رحم البخل ودفعه الطيش في يوم ما لأن يكون لصًا يسلب خلسة ما يوحي له باكتمال رجولته، ويتم له ما انتقص من هيئته، فقد استطاع أن يكبح جماح هذا الطيش، وينزع نفسه من هوى سيطرة ترديها في وهن الضياع، كيف لا وقد بات مسئولًا عن تصريف أحوال أسرته، حيث ذهبت به كل الخيالات لأن يكون موضع الإكبار بين المحيطين به مطمئنًا بالعزيمة المقرونة بالثقة، ولا يتسرب إليَّ شك في أنه أضحى حريصًا أشد ما يكون الحرص غير أنه لا يصل إلى إقتار وشح أبيه لأن النفس بطبيعتها تأنف ذلك، وتؤثر البعد عما حرمت منه، وكانت تصارعه في شيء من البغض الحانق.

تغير وضع نصف الدنيا إلى الحد الذي يوعز بأن الأيام قد تكون كفيلة لأن تحفه بوداعتها، فقد كسا رأسه بعمامة هيئته في خلده أمام الناظرين إليه رجلًا، وأصبحت يده لا تفارق عصا أبيه، بيد أن ذلك التغير في هندامه ومحاولة بسط المكانة حد التصنع لم يحمياه

في كثير من الأحيان من الهزأ به لا سيما معاشريه، لكن جابر لا يلتفت لهذا ولم يبدِ له أي اهتمام، لأنه في قرارة يقينه يتناهى إليه النظر بما يجعله رجل الموقف فيفضي إلى نفسه كثيرًا بما يسمح لها بالتثبت ومغالبة ضيقه من الهزأ به بالحدة والاستنكار أحيانًا، وإيثار التسامح في أحيان أخرى، مجاريًا الهزأ به بما يملكه من جود ردٍ وفكاهة جانب.

أما أمه التي تغالبني نفسي أن أسميها لطيفة، فقد أضحت غير التي كانت، بعد أن خطت السنون بخطواتها وخطوبها عليها، حيث اعتراها مقصد الحرص غير مستهينة بمستقبل بيتها، فأخذ ينسال منها فيض من الرغبة الحانية في أن تزين الحياة الفسيحة بما يختزن في أحلاهما من تطلعات لبنيها تعينها على سبيل تحقيقها فطرة مغلفة بالذكاء وحسن تدبير الأمور، فعمدت أولًا إلى أكبر أبنائها جابر، فروضت طيشه وجعلته طوعها الخيِّر ثم عمدت إلى انتهاز كل فرصة أي فرصة تحمل في طياتها النفع لأسرتها بتوجيه تغلفه الحكمة، متى سنحت هذه الفرصة، وأينما وجدت السبيل إليها.

تقنع نفسها كثيرًا في شيء من الارتياح، وسمو المزاج بأنها أضحت سببًا في الحياة الوداعة التي تحياها هذه الأسرة، إذ لولا اصطبارها وحسن تدبيرها لشؤون بيتها

لانفرط عقد أبنائها، وضاع ما كان يجمعه زوجها الذي أفضى به المرض إلى فراشـــه حامـلًا آلامه مثنيًا على تدابير زوجــه التي كان يرميها ذي قبل لحظـة حنقــه عليها بأنها الزوجـة المائعــة اللعــوب، غير أن مياعتها تسوقها تلاعيب لسانها وتحدثها جل حديثها بإرعــاش حاجبيها في غير إضــلال لطريــق أو شــك من قبل الزوج.

تتذكر في شيء من التأمل العميق، وبفؤاد باسم ليلة كانت تقنع ابنها بشراء قطعة أرض أراد صاحبها أن يبيعها أو أرادت هي أن تبتاعها، وزوجها يراقب الأمر بعينيه الذابلتين في مهل أليم، مبديًا تأوهات وتند عنــه كلمات توافق مسعى الزوجة، غير أن الابن يصيــح في صخب مبديًا عدم الرغبة فيما يعرض عليه:

- مالنا ومال الأرض .. ما كفايا اللي معانا !
وبعدين هنكمل تمنها من فين ؟!

أما هي فأصـرت على رغبتها مقتنعـة حد اليقيــن بأن ابنها لن يثنيها عنها، فأقبلت عليــه بوجه يمـلأه التــورد ويشمله التودد، ريثما يرضخ لمرادها، مبدية الاستعداد التام لبيع حليها وبعض الماشية التي يمتلكونها، وإن لزم الأمر حلي بناتها، مما أثلج صــدر الابن وانصــاع في النهـاية لرأي الأم، وإشـارات الأب فتنهـدت الأم تنهـدًا يسبقه الارتياح، ويكتنفه البِشر ..

شعرت لطيفة بعد هذا التأمل بكينونتها، وإصابة آرائها حين ترمي، ورفعت حاجبيها قائلة بلهجة ملؤها الزهو:

- هكذا يكون المستقبل الذي يحقق السعادة للأبناء.

ثم بسطت راحتيها مناجية في خاطرها:

- يا رب أدم علينا نعمة الستر، واكفنا شر العين .. يا رب.

أعلم عزيزي القارئ، أنك في شوق يحدوه القلق رغبة منك في أن تعلم حال الفتى إبراهيم وليلته، فقد خطا بنا الحديث طريقه ناحية نصف الدنيا أو جابر كما تروق نفسه لهذا الاسم، وجنحنا سويًا في ارتياح كيما يسير القصص على نحو يسع كل أفراد المحكي، ورغبة مني في أن أمضي معك مدفوعًا بوصل الود حد الأنس فهذه سبيلي التي لا يشغلني عنها الآن إلا هلع إبراهيم وتوجس نفسه بالخوف من ظنه طول المكث في مخبئه.

فبعد أن صاح رضوان وعلت حنجرته بصوته الجهور ودوي الصوت مخترقًا حجب الليل وعمَّ أركان المكان، أفاق أهل المنزل جميعًا في ذعر طغى عليه الكسل، وما لبث إبراهيم إلا أن هرول مختبئًا في حيرة وقلق شديدين بعيدًا عن الأعين في مكان مظلم وجد فيه الملاذ الآمن إلى الحد الذي جعله في منعة من أن يراه أحد، وقد كتم أنفاسه مترقبًا وقلبه يعلو وينخفض من شدة

الاضطراب مجيلًا نظره، مصغيًا سمعه لكل حركة يدب دبيبها أو تبعث ما يحدث الروع والرجفة داخل أغوار نفسه.

تفقد الجميع المكان داخلًا وخارجًا، بين كسل يتملك البعض وهمة يحدوها الذعر من بعض آخر، لا سيما رضوان، وبعد حين ران عليهم جميعًا شيء من الطمأنينة التي أفضت بهم إلى الهدوء، بعدها أقبل عامر على أبيه مستعليًا وجهه البِشر والدعابة الحانية، قائلًا باهتمام:

- الحمد لله على كل حال يا حاج .. الأمر بسيط، ولا في أي حاجة .. لا حرامي ولا غيره.
مين يقدر يتعدى على بيت الحاج رضوان ؟
هلم إلى فراشك يا أبتي، ودعك من تلك الهواجس والمظان التي تنغص الفكر وتعكر صفو النوم.

ارتاحت نفس رضوان بعض شيء ملوِّحًا برأسه بما يشي بالاقتناع، ثم أخذت الجميع برهة من الأحاديث المليئة بالتسرية والمجاملة، خاصة من بعض الجيرة الذين راعهم صوت رضوان فانكفئوا وجلين ملبين ذلك الصوت، إما استطلاعًا أو بغية مد يد العون له إن احتاج الأمر، وما لبث الوقت طويلًا حتى ودع الجيرة المكان بين شكر أسرة رضوان وامتنانهم لحسن صنيعهم الملبي لاستغاثة الجار.

ثم طفق الجميع إلى حيث يرقدون وقد تمكن الصقيع من أجسادهم، والتف كل واحد منهم مدثرًا بغطائه الشتوي مستلذًا بالدفء، ريثما يذهب عن جسده قشعريرة البدن وصقيع الأطراف التي لا يمحو صقيعها إلا التدثر بغطاء يتبعه غطاء.

استغرق الجميع في نومهم، وخيم على المكان الهدوء كما كان قبل انبعاث الصوت من رضوان، وإبراهيم قد بات يعارضه الشعور بهدوء النفس القلقة بعد أن مر عليه الوقت كالدهر وهو يراقب الموقف ويلاحظ دوائر المكان ويترقب أنفاس النيام ويلوح في خاطره أن يمزق بمخلبه الفتي جسد الأيام ..

تحرك غير متباطئ تحركًا لا يخلو من الحيطة الحذرة وتردد البصر حد التفرس لكل شيء يحيط به، وبين حيطته الحذرة وتفرسه المشرئب بالتفحص يلوح أمام مرئى عينيه موضع رقود رضوان، إلا أن ما شاب الليلة من أحداث أحجمه عن الولوج إليه، ولم يطل له الانتظار كثيرًا فبعد استدارته يمنة ويسرة مع شيء من الحركة هيأ له القدر على غير موعد أو بموعد تمناه شيئًا استحق منه الاهتمام، قد يكون كثيرًا ما اعتاده فمثله لا يغيب عن باله مثل هذه الأشياء ..

وجد الفتى إبراهيم ما أثار عقله وهفا إليه قلبه، فاندفع نحوه في عجلةٍ، وأخذ في سرعة يتحسسه بيد مصحوبة

بالشوق، ثم حرَّكه في شيء من عنفوان الشدة، فما لبث أن انفتق أمامه دون عناء، ذهل الفتى ذهــولًا اتبعتــه النشــوة الداهشــة، وكأنه تفـاجأ تفاجؤ من لاح أمامــه عارض على غير انتظار، بيد أنه سرعان ما استــدرك هذا الذهول وتغلب على تلك المفاجــأة، وأضاءت وجهه البسمة تهللًا ممنيًا نفســه بسرعة إتمام عزمه، ومحدث ذهولـه ومفاجأتـه إلى الحــد الذي جعله ينسى الوجــل ويصاحب الأمل.

استطاع إبراهيم في شيء من خفة اليد وعزيمة النفس أن يلوذ بما لاح أمامه، وما لاح أمامه إلا غنم ثمين من عدو أمضاه الدهر في طريقه، فقد لاحت أمامه خزينة رضوان التي هي تجويف غائر في أحد الجدر ويسدها غطاء يَحْكُمُ إغلاقها، وما أظن أن رضوان قد أحكــم إغلاقها في تلك الليلة ..

لربما أنسته الفرحة الآمنة، أو أنسـاه القدر اللطيف معه ومع الفتى حسن إغلاقها.

لفحت إبراهيم وقتذاك السعادة والبهجة فأخذ يجمع من تجويف رضوان كل ما طالته يده، لم يترك شيئًا في سرعة كالبرق، وقد مَثُل في خاطــره استرضاء نفســه بمظان التشفي من رضوان واستجابة الأقدار له، والتي سترفــع عنه وعن أسرتــه عذابـات سنين لازمت قلبــه وبدنه، وبعد أن تم له الأمر أخذ نفسه هامًا في الخروج

من حيث أتى بحماس وجدية، دون إحداث ضجة أو استهانة بالموقف .. وما عساه أن يفعل غير ذلك، غير أنه أثناء خروجه رمق موضع رقود رضوان بنظرة شزراء وكأنه انتبه من سهوة عارضة تذكرها في شيء من التشفي المغلف بالغل والحقد عليه.

خرج إبراهيم جادًا مكترثًا بما أشاع في نفسه الارتياح، وقد كاد الهزيع الأخير من الليل أن يلم ما أقره من دامس الظلام، أخذت أقدامه طريق الأوبة مسرعة ماضية نحو النجاة، ونفسه تميل إلى البهجة والانتشاء كلما انسحق بعيدًا في براح القرية متجهًا نحو مقر أمانه وموضع استقراره، ولج إبراهيم داره في صمت ودون أن يلحظه أحد، وقد أسلم نفسه إلى نشوة الإحساس بما أعاضها عن الألم والحزن، أما أمه وأخواته فهن ما زلن في موضع رقودهن، نيام مستأنسين بالدفء، مستلذين بنشوة النوم في مثل هذا الوقت من الليل.

شق الصبح بنسماته الشتوية أنواره البهية الندية، فأفاق الجميع من سكرة النوم وإبراهيم قد أخفى غنمه الثمين حيث أراد وسط زحمة من الأفكار والخيالات الحالمة التي كست عقله حد السيطرة عليه، أراد أن تنعم عيناه بلذة النوم بعد كل هذا العناء والارتياب والقلق، لكن أنى له الخلود في النوم مستجلبًا لذته ؟!

أخلص إبراهيم نفسه لما تهاوى عليها من عدم الرغبة في النوم مجيبًا عقله الذي شـــرد في الخيــال مستأنسًا بغنمه الثمين الذي لم يظفر بمثله ذي قبـل، وفي لمحـــة من لمحات الخاطـــر أشعرته بغتة بالشجــن وروعــة التشفي في آن واحد، فقد أثارت بعض الذكريــات في نفسه ما أثارت من الأسى حد التأثر، فخيــل له وقع أمر السرقة على رضوان عندما يعلم بها وهو المحب للمال قائلًا في شيء من الســب الجـاد، وقد عاودتـه طمأنينة التشفي:

- يا سافل يا ابن الكلب .. تستاهل أكتر من كده. بس الأيام بيننا، صحيح فلتت المرة دي لكن أكيد المرة الجاية لا.

آذنت نفسه بالشعــور بالشجــن لحظة أن طفــق على خاطــره رضوان قبل تلك الليلة، ثم تلبستــه حـــالة من النشوة حتى بلغت التشفي بعدها، لأنه استطاع أن يسلب رضوان شيئًا عزيزًا عليه، يحــرص الحرص كله بل حرصًا يعهده الناس عليه إذ هو محب للمال والمال له حبيب، لا يألو جهدًا في جمعــه في غير شح أو إقتــار، يضيــق صدره أكثر ما يضيق في أكثــر جلساته - وما أكثرها - عند الحديـث عن موسر بخيـل، وكأن شح ذلك البخيل الموسر جريمة نكــراء استطاع هو أن يترفــع عنها بجوده الحاني على أهل بيتــه، وتظـاهره بالجــود

العاطـــف على من حوله من الفقـــراء المعدميـــن، ثم لا ينكر على نفسه حنق الناس عليه لحظـــة إنصافه لها، خاصة في المواطن التي يرجون فيها وقاية النفس من براثن حب الذات، آملين العدل والإنصاف، الأمر الذي جعله في كثير من الأحايين لا يعلو صوتًا فوق صوته عاجبًا بهذا حد الزهو، ماضيًا في ذلك الطريـــق حـد الشعـور بالعـزة واغتـرار الذات، هذا كله طفق على خاطر إبراهيم، ماثلًا أمام عينيه لحظة نشوتـــه المتشفية في رضوان الذي يهابـــه الناس حتى الصبيـة، متذكرًا خشيتهم له في الصبا حـد الخـــوف أثناء لعبهـم الذي لا يثنيهم عنه إلا أمثاله ..

طاف في خاطره استئناسه والصبية باللهو الضـــاحك والهزل المـــاتع فيما بينهم، خاصة وقت تروق لهم تلك الملاعب التي يجيدونها مغتبطين بها في بهجة لا تدانيها بهجة بل وتمثل لهم راحة النفس وأريحية القلب وسعادة الوقت ..

يقسمون أنفسهم بين فريقيـــن أو فرقًا حسب الأنفس الحاضرة منهم، ولا ينفصم عنهم الزعيـــق والتشـــاجر أثناء ذلك التقسيم إلى حد السبـــاب أو التشابـــك بالأيدي إلى أن يتم لهم الاتفاق، ومن ثَمَّ مزاولة ما اجتمعوا عليه من ماتع اللهو واللعب، خاصة تلك اللعبة التي يحبونها إلى الحد الذي لا يمكن للملل طريقًا إلى إحســـاسهم

واستمتاعهم بها، فلا ينفكوا عن مزاولتها ويسمونها فيما بينهم صيد السمك، فبعد أن يتم لهم عناء التقسيم لأنفسهم يُجِدُّون في صنع الكرة التي ستكون مجلب النشاط والسعادة لهم ..

كرتهم ليست كباقي الكرات، إنما هي خِرَقٌ مكهنةٌ وضعت في أحد الجوارب البالية ثم لفت ببعض الأربطة في إطار غير منسوق، يتقاذفونها فيما بين اثنين منهم، والفريق الذي يلزم اللعب يجوب المكان عدوًا بين تقاذف الاثنين كي لا تلمسهم الكرة إن صح أن تسمى كرة أثناء تقاذفهما الدقيق، وتكون السعادة كل السعادة لحظة احتضان أحدهم الكرة بين ذراعيه ممسكًا بها فتكون الفرحة كلها لأعضاء ذلك الفريق، لأن ذلك يعني إعطائهم الفرصة للعب مرة أخرى، مستلذين بإحباط الفريق الآخر، بيد أن فرحتهم قد لا تدوم لأن هناك من يَجِدُّ في إقصائهم عن رغبتهم في اللعب واللهو، ولا شك أن رضوان أحدهم إن لم يكن هو أكثر باعثي الخوف والهلع لهم، لذا عمد التفكير بالفتى إبراهيم في غير ترحيب لأن يبغض رضوان الذي كثيرًا ما يَهِلُّ عليهم باقتضابه الحانق، والتوعد لهم بالعقاب بألفاظ جافة تخرجهم عن بهجتهم وانهماكهم في اللهو واللعب، فيعاجل الصبية بالفرار منصرفين أمامه كجرذان ضعيفة أصابها الذعر أمام هر متنمر في أشد الانزعاج والثبور، ساخطين عليه أيما سخط.

كيف لا وقد شتت لحمة تجمعهم وقطع عليهم جميل بهجتهم وأثناهم عن حلو لعبهم، هكذا سيطر الأمر على إبراهيم بين إجالة الخاطر ورجاء النوم إلى أن باغته دافع النوم، فطاوعه وأخلد عينيه فألفى نفسه غاضًا في نوم عميق.

أما رضوان فبعد أن أُريحَتْ نفسه، تمتم بالشكر وخَلَدَ بجسده إلى الرقود، ونفسه تنازع الاطمئنان حتى تمكنت منه، فمر الوقت عليه هادئًا مستغرقًا في النوم، هانئًا بالدفء في فراشه الوثير، وزوجه عواطف قد أوجبت على نفسها وابنتها الإفاقة من النوم قبيل بزوغ الشمس في همة لا تدانيها همة، وفي نشاط لا يزايله تذمر ريثما يستطيعان إنجاز ما أفاقا من أجله، وما أفقا إلا لأجل إعداد الخبز الذي تستطيب له نفسا زوجها وابنها في ترحيب وثناء على حسن مذاقه، والمهارة حد الدقة الفائقة في إعداده.

بيد أن الزوجة وابنتها حنان ساعة انهماكهما في إعداد ما عزمتا على فعله، وصحيتا باكرتين لأجله ما زالتا على استذكار لما حدث البارحة مع هدئة الليل، وبعد انتصاف هزيعه المتلبس بالصقيع، والأم تضحك ملء فيها في عجب لما أحدثه زوجها من هلع وخوف لم تعهدهما عليه، وابنتها تبادلها الحديث الذي يحدوه العجب مبتسمة ابتسامًا لم ينسها واجبها الذي انكبت

عليه منذ استيقاظها ناشطة، عاكفة على ماجور العجين الذي يعجن فيه الخبز في مراحله الأولى بين تعالي الصوت انخفاضًا وارتفاعًا حسب قدرة العاجنة غير أن في ارتفاعه وانخفاضه إزعاج بين للنائمين، الأمر الذي يجعل عامر عند علمه بأن الغد هو يوم العجين يبادر على غير رغبة بالنوم مبكرًا آخذًا الحيطة سبيلًا كي ينعم بنوم فيه الكفاية لأن يريح جسده وعقله، غير أن هذا اليوم يختلف عن باقي أيام إعداد الخبز، فقد سبقته ليلة شابها تكدير لنعيم النوم وراحة الجسد، فأني له أن يستيقظ كما عود نفسه ؟!

أعطى عامر نفسه شيئًا من الرجاء مغريًا إياها بضرورة التغلب على ذلك الإزعاج غير المقصود، فكتم ضيقه، وجعل يضع الوسادة على رأسه مرة تلو مرة، متقلب الجسد بين الفينة والأخرى، آملًا أن يعيضه ذلك عن تكدير هدوئه المنزعج، فما كان منه إلا أن أفاق على غير مراده، ثم أخذ يتسكع القيام من فوق مرقده، وكأن إيحاء الرغبة في النوم ما زال يراوده، وبين الإيحاء والتثاؤب همَّ قائمًا رافعًا حاجبيه وعيناه بارقتان تشيان بالضيق العاتب لمسبب قيامه، ولم يخرجه عن هذا الحالة الخاملة إلا رؤية أمه وهي تعيره الاهتمام في إقبال تحيطه الابتسامة الراضية:

- صباح الخير يا غالي.

أجابها الصباح بنظرة شاردة:

- صباح النور، ثم سعل في غير ارتياح.

انتبهت الأم لسعاله فدنت منه ريثما تطمئن عليه، وقد خفق قلبها في لهفة بعثها حبها لفلذة كبدها، وأخذت تحيطه بكلامها وحنانها، وهو ينظر إليها وتعلو وجهه ابتسامة عذبة لاحت في عينيه، واطمأنت لها الأم.

سعى مجاهدًا خموله، فصادف أخته مقبلة عليه بعد أن فرغت من مشقة العجن الذي ما زالت آثاره متشابكة مع بياض يديها، فرمقها بابتسامة ملؤها التهكم، فاقتضبت في غير ثورة، وهي تقول:

- مش عوايدك، طاب قول صباح الخير حتى ..

زاد في التبسم، وبادلها المزاح العذب الرقيق في ألفة طالما عهدها الاثنان، ورحبت بها الأم.

وبين تلك الينابيع الباسمة الرقراقة بين الأم وولديها تنبه الجميع إلى صوت الأب الذي أنبأ عن قيامه، أبطأت الأم الإجابة على غير رغبة منها، ريثما تنجز عملًا حرصت على فعله قبل الذهاب إليه، ثم بادرت الزوجة مسرعة إليه ملبية احتياجه لها، الذي اعتاده هو أو عودته هي عليه، لكن حسنًا ما فعلت حيث دخلت

عليــه فرمقها بنظــرة جافيــة مبعثها حنقه من تأخرها في إجابته، أما هي فأمعنت في الاعتذار ..

نحى عنها إرماقه الحانق، غير آبه لاعتذارها ثم اعتدل قائلًا في انفعال:

- لا أدري، ألأيام تزيــدك فهمًا لمهـامك، أم أن استدامتها تجعل منك زوجًا يغلبها النسيان ؟!

شعرت عواطف بدافع الثورة يغالبها، حيث جــرى دم الانفعال في عروقها، فمنعت تدافعه، والتزمت الصمت ثم شهقت شهقة وشهقة أفصحتا عن احتجاجها المكظوم، الذي لم يستطع لسانها أن يبديه.

وبين انفعال الزوج الحانق، واحتجاج الزوجة المكظوم، دُفِعَ باب الحجرة عليهما فانتبه الأب، وأفصح الدفع عن دخول ابنتهما حنان دون أن تبدي استئذان ..

تساءل الأب في غير استيعاب:

- في إيه يا حنان ؟ إيه اللي حصل ؟

ابتلعت حنان ريقها في ارتباك بيِّن، ثم بادرت دون أن تعطي الموقف أي سبيل لمزيد من الذهول:

- باب الخزينة لقيته مفتوح وو....

لم يترك لها الأب طريقًا لاستكمال لجلجة حديثها ..

- بتقولي إيه ؟!
الباب مفتوح .. يعني اتسرقت ولا إيه .. ؟!!

أمسكت البنت عن الكلام، وهمَّ رضوان واثبًا في لوعة وخفقان قلب وتزلزل خاطر، وقد ضربت المخاوف أحاجيها في رأسه وكأن حدسه البارحة أصدقه ما تنامى إلى سمعه الآن، أما زوجه فعلى حالها الذاهلة الواجمة وقد اقتضب جبينها أكثر مما ينبغي، فأنبأ عن قبحها وامتداد شفتيها اللتين لا تروقان لرضوان.

خرج رضوان من غرفته متلهفًا مضطربًا في أشد ما تكون اللهفة والاضطراب وتفعل الحسرة والاستغراب، وفي لحظات أدرك الجميع المكان الذي يأتمنه رضوان على ما اكتنزه من أموال هي جهد العمر وكفيل النعيم والسعادة في المستقبل.

وقعت عيناه على الخزينة فإذا هي خاوية على عروشها، فتسمرت قدماه وقلبه قد ازداد خفقانًا على خفقانه، وأصابته رعشة أرعبت بدنه، ثم ارتفع صوته ارتفاعًا قذفه وقع المصيبة التي ضاقت بها نفسه، ولم يستطع عقله تقبلها، وكأنه يلوم القدر ويرفض تدابيره غير مستسيغ وقع الأمر قائلًا:

- يا خراب بيتك يا رضوان !
يا خراب بيتك !

انسرقت .. سرقوك الحرامية !!
ليه يا ربي ؟!
عملوها ولاد الكلب، كان قلبي محسحس والله !

احتضنت الأم ابنتها وهي ترقب فعل زوجها بطـرف عينها الدامعة وصوتها الناحب يزداد، وهو يهزو بأمر السرقة مرة، وبضياع دخيرة عمره أخرى ..

دب الصوت في أذني عامر، فاتجه في سرعة كالبرق صوبه، فألفى والديه وأخته في حالتهم النكباء فانبعث منه صوت باطنه الشفقة وظاهره الارتياب والقلق:

- ماذا حدث ؟

وقعـت عيناه على الخزينـة الخاويـة، أدرك الأمـر فاستملكه الشعور بالوجوم أولًا ثم زاحمته قسوة الخطب الأليم الذي يسيطر على الجميع، فتمتم بنبرات حاسرة:

- أنا السبب .. أنا السبب !
أي شيطان لعب بعقلي ليلة البارحة ؟!
كيف أصغيت إليه ؟!
أنا سبب كل ذلك، لو ما أشـرت عليهم بأن الأمر لا يتعدى إلا هواجس ومظان لا تنبئ عن السرقة ما كان كل هذا الألم، ما حدثت تلك البلوى التي أفجعت الجميع .. ليتني ما فعلت ذلك، ليتني ما هونت الأمر.

أقبل عامر على أبيه في مهل عصيب وقد اشتد وجيب قلبه كأنه يدمع من شدة البلوى وجرت على عينه دمعة أمعن هو في إظهارها. انحني لأبيه، ثم ربت على كتفه في إشفاق كي يشد من أزره، فقام الأب متظاهرًا بالتماسك، لكنه ما أن هم بالقيام حتى هوى على الأرض كما كان، هب عامر وأخته ومن خلفهم الأم لرفعه ونار الحسرة الأليمة توهج وجوه الجميع، والأب ينظر إليهم واعيًا لفعالهم الحانية عليه غير أن لسانه لا يجاري فعالهم، وكأنه عقد عليه فلم يستطع الكلام وقلبه تعصره المرارة وخيبة الدهر على غير موعد.

شاع الأمر في القرية كأنه نار أضرمت في هشيم متشابك، وقد أسرفت مستعذبة ذلك الاضطرام ..

أما إبراهيم فقد فرض عليه النوم عذوبته حتى ارتفعت الشمس سالكة مقصدها نحو الظهيرة، فأفاق من رقاده على استذكار لما كان يجول في الخاطر وأمانيه تسبقها الفرحة، فقد أقبلت عليه الحياة ببهجتها بعد طول انتظار، وأمه تتابع عن كثب حاله وهي ما زالت على فرشها أمام بضاعتها من صباح اليوم الباكر وحتى اللحظة، في جهد جهيد تنتظر مبتاعيها الندرة في مثل هذا الوقت من اليوم، وإذ به يخرج من البيت مارًا أمام أمه وبابتسامة غير معهودة منه يلقي التحية عليها، مما أصابها في لمحة بالغبطة، غبطة أسرَّتها في نفسها ولم

تبدها له، غير أنها دعتها لأن تهز رأسها عجبًا، ثم لم يسعها الأمر إلا ألا تفوت الفرصة فحادثته قبل أن يبرح المكان:

- فطرت يا إبراهيم ؟

لكن الفتى بدافع لا شعوري، غمغم بعبارات فهمت الأم منها إعراضه عن إجابتها، فأمسكت عن الكلام.

استمر إبراهيم في مشيه ضاربًا في الأرض، كي يروم أخبار الليلة ووقعها على أسماع الناس، وقد جعل يدير وجهه يمينًا وشمالًا ويرهف سمعه على سبيل التحقيق ريثما يستبين ما يتطلع إليه، حيث هاجس التهمة يزايله لأنه ورفيقه أقرب ما يرميان بالاتهام.

وقع على سمعه تناثر الكلام الذي أشيع أمره من سرقة بيت رضوان، فأبت نفسه إلا السرور، وأخذته الحماسة لأن يعدل وجهته قبالة مجتمع الحديث، ثم تشجع بينهم قائلًا، وقد علت وجهه الحسرة المصطنعة:

- بتقولوا إيه ؟
بيت الحج رضوان اتسرق !
كيف ده حصل ؟!

لفحه أحد الحضور قائلًا بنظرة شزراء ماكرة تحتضن عدم الاطمئنان:

- أولاد الحرام كتير وربنا يهدي العاصي.
ده ياريت الأمر وقف على حد السرقة وبس، ده بيقولوا يا عيني رضوان تعب قوي، مسكين ملحقش يفرح، ربنا يسلم ويسترها معاه.

حل الضيق على أكثرهم حد الشفقة الرحيمة العاطفة على رضوان، فقد آلمهم الأمر أشد الإيلام، أما إبراهيم فما زال وجهه يتصنع اللوعة والأسى، وقلبه يطمئن بالفرحة والرضا، فقد خلع نفسه إلى حد كبير من براثن الثأر الغليل المقيت.

آن لنفسه المنكسرة أن تستقر ناعمة بصحوة الإحساس بيقين الأنس بملذات الحياة والبعد عن متاعبها أيًا كان مبعث متاعبها.

وبين ضيقه المصطنع ومسرة قلبه التي يضمرها هلَّ عليه رفيقه عرفة على غير انتظار، فلم يعره اهتمامًا غير اهتمام رد التحية كغيره من الحضور، مما دعاه لأن يستحضر روح الدعابة في غير موضعها مازحًا معهم كي يجد متنفسًا للحديث وقد كان لعرفة ما أراد، فمضى بهم الوقت ما وسعه أن يمضي، بعدها تفرق الحضور كل إلى سبيله.

أما الرفيقان فقد ظفرا بالخلوة دون أن تلحظهما الأعين تحت أحد الجدر المطوفة على غير أساس يرعى لها

الاستقامة، فقد كلَّها الزمن وأوشكت على الانهيار لولا عناية الله لها، أبدى عرفة دهشته من نجاة إبراهيم في تلك الليلة العصيبة التي بدت كحلم مزعج، تلاشى الآن لحظة اطمئنانه عليه.

قطع إبراهيم على رفيقه دهشته بمعاتبته على تركه يقاسي الرهبة، وقد دأب هو على النجاة دون أن يبادر بإبلاغه بالخطر، أو ينتظره لحظة الهرب، فلربما حكم القدر بالظفر به، ساعتها كان ما دبروه قد خاله الضجيج والهرج فانبري وانكشف ..

وسعت عرفة الحيلة، فأخذ يبدي الحجج مسترسلًا في الحديث مع رفيقه كي يعلم ما خفي عليه من أمر الليلة بلهجة ملؤها اللهفة والشغف، قص إبراهيم عليه كل ما عاناه من أخطار أرقته وأرهقته وكادت تودي به إلى معرض القبض عليه، ولكن القدر كان به رحيمًا فتمكن من النجاة بعد ترقب وارتباك يظللهما الهلع والتعب، ثم غدا بهما الحديث إلى غنم الليلة الذي هو حديث الناس، ففطن إبراهيم لذلك جيدًا، وكاد الأمر بهما أن يجنح إلى ارتفاع الصوت، الأمر الذي حدا عرفة بخبرة وحنكة الأيام أن يأخذ المهل في الحديث طريقًا كيما يروض اندفاع رفيقه قائلًا بوجه مشدوه مقتضب، وصوت آثر فيه الهمس:

- ينعل أبو دي أيام يا أخي ..

قال مشافوهمش وهما بيسرقـوا .. شافوهم وهما بيتقاسموا.

عقل الاثنان مغبة الأمر، فرفت على شفتيهما الابتسامة داهشين حد التهكـم من حديثهـما الذي بدأاه بما يشبه العتـاب وكاد ينتهي بالانفعال حد افتضـــاح الأمر، فبدا كالمعتذرين.

تجـاوزت الأيام بغيتها ماضيـــة في طريقـها، تجـــرها الشهور، وقد أحسنـت تقارب الرفيقين تارة، وغمرتهما بالجفوة أخرى، وأسرة إبراهيم قد تغيرت حالها كثيرًا فالبيت تم له في عين الرائي الاتـزان واعتدال البنيـة، مستقيمًا كما أراده إبراهيم وتمنته الأم، والرزق قـد أصابته السعة وشيء من الرخاء، وإبراهيم قد آثـــر أسرته بالمودة واللين وأبر والدته خافضًا لها جناح الذل حد الرحمة في غير شدة أو ضيق نفس، فتجـدد الأمل في نفسها وأحسنـت استقبـال الأيام في خـــاطرها، مما دعاها ذات يوم وهي تجلس في ترقب مجيئ ابنها، تنظـر إلى بنـاتها بنظـرةٍ تُفْصِحُ بوضوحٍ عن مكنـــون خوفها العطيف عليهن، وكأنها تتطلـع فيهن أمل السنين واصطبارها على مشقة الأيام، منتظرة بشغف اكتمال سعيها الدؤوب بتزويجهن وقد رفت على شفتيها ابتسامة رقيقة لا يستبين رقتها إلا هي ..

تذكـــرت يـوم ختـانهن، قـائلة بنبرة تشي بالارتيـــاح والإشراق:

- لحظات سعيدة ما أجملها !!

عقبال ما أفرح بيهم وأستَّرهم في بيت عدلهم.

ثم تصمت برهة ..

- وإبراهيم كمان يا رب.

كأنها تداركت الأمر، ثم عاودتها الشفقة عليهن منطوية في الشعور بالرفق والعطف المشوبين بالرضا والبشر، فقد استدعت في خاطرها يوم ختانهن ذلك اليوم الهنئ الذي طافت فيها السعادة عليها بعد أن شاركنها نسوة الجوار هذا اليوم، تنهدت في ارتياح عميق بتلك الذكرى فرحة بختان بناتها اللائي دخلت عليهن داية القرية التي تتولى أمر ختان البنات وقد افترشت الأرض لهن إيذانًا بالاستعداد لمبعث الفرحة التي من خلالها ستقوم الداية باجتـزاز شيـئًا من لحمهن الشـاهي حتى يَكُـنَّ أقـرب للشرف الذي هو عنوان أمثالهن، كيف وهن لا يملكـن سواه ؟!

تسرح بخيالها وتقترب شيئًا فشيئًا من الماضي، تتذكـــر حشد النسـوة اللائي كثيـرًا ما زاملنـها في جلســاتها وخروجاتها المتكررة على سبيل الجـــد في المجـاملة والتزاور معهن رغبة في إظهار الود، اجتمعن لديها في

يوم الختان، والفرحـــة تعلو وجـوه الجميع، وتبســط أساريرهن، كيف لا واليوم يوم عرس لهن ؟!

أخذن في التغامز والتلامز في انتبـاه ورعشـــة داخليـة تحركها نوازع الشهوة وعطش الأجساد، بألفاظ تحلـو لهن غير أن الذوق يمجها والسمع ينكرها وتحمل غاية القباحة والعهر، لكن أسماعهن تطيب لها لأنها تحرك دوافع الشعور عندهن، وتزوي بهن إلى خارج صوامع الأسرار.

شمرت إحداهن عن ساعديها في حركة تمثيلية تنبئ عن همتها في المســاعدة، وبلهجة خرجـــت من أعمـــاقها صاحت:

- خليها تبـرد نارهم، بكـــرا يتجوزوا وينســوا كل شيء.

شاركتها سعيدة المقال:

- ميتى بس يا شفعية يا أختي ميتى ؟

ثم صمتت قليلًا وأعقبت قائلة:

- أهو كله والنصيب.

ثم همت إحداهن قولًا:

- والله ما حيحسوا بأية حاجة ..

ثم استطردت ضاحكة:

- يا بيي .. خلي حيلهم يتهد.

ضحك الجميع في غنج أنثوي فاضح، ساعتئذ تظهر (أم العز) الداية العجوز، ببشرتها التي هي أقرب إلى السواد وبقامتها المتوسطة، وصدرها البارز من وقع انتفاخ نهديه البين، وأردافها الغليظة غلظة لا تتناسب مع تناسق الجسد، وقد بدت عليها علامات الهرم في غير ضعف ولا وهن، فهي ما زالت محتفظة بقوة تمكنها من القيام بأعمالها التي تشتهر بها ويقصدها أهل القرية لأجلها.

دلفت الداية بابتسامة كشفت ثانياها البارزة، وما أن رأى الصغيرات إقبالها حتى داخلهن الخوف، وبدا عليهن وقع البكاء كأنهن فراخ تنتظر دورها في الجزر، لا حول لهن ولا قوة فالأجساد تحيطهن من كل جانب، والزغاريد ترفرف من الجارات، وتملأ قلب الأم بالإغراء فتبادلهن الفعل.

تطوعت إحدى الحاضرات بإبعاد اثنتين من البنات حتى يأتي عليهما الدور في ذلك العرس ..

أما الثالثة فقد أمسكنها ثلاث من النسوة المتطوعات المتسمات بالصحة، ريثما يتغلبن على خوفها وحركاتها اللاإرادية الهائجة وهن بوجوههن المتحفزة في اكتراث لا يبالين بحركات الصغيرة الهائجة، وينعتنها في إشفاق بحلو الكلام حتى يهدأن من روعها.

قمن أولاء النسوة برفع ما يقي جسد الفتاة عن الأنظار، حتى تخطين به الجزء الأعلى من الجسد، كي تتمكن الدايــة العجــوز أم العز أن تنجز مهمتها وقد كان لها ذلك.

تمت عمليـــة الختــان للصغيرات وسط ترحيــب الأم وصراخ الصغيرات من شدة التعب، بأصوات قد أبحَّها وقع الصراخ ومشقة الألم وبالأخص أصغرهن.

- آه .. آه .. ليلة لا تنسى ..

قالت سعيدة ذلك بعاطفة من الحنان تحركت داخلها، وهي تبتسم ابتســامة العودة للذكريــات التي طــافت بخاطرها الآن دونما سبب، ولم يخرجها عن استئناسها المنتشي بتلك الذكريات إلا قدوم من تنتظر.

أخذتها المشاعر الأمومية الرقيقة التي تنبثق من أعماقها حد الانشــراح، فتقدمــت نحو ولدها وهي تبلــع ريقــها متأهبة للاطمئنان عليه، أما بناتها فمن حولها كل منكبة على العمل التي وكلت به في غير ضيــق ولا تذمــر

وبهمة لا تدانيها همة، فهن تعودن الطـــاعة للأم تأدبًا معها وحـرصًا على إرضائها، ناهيـــك عن تنافسهـــن الحميد في إنجــاز أي عمـل يقدمــن على فعلــه، وهـذا طبعهن الذي يلزمنه كسائر بنات حـواء، حيث الغيـــرة حميدها وغير حميدها تأخذ مداها لدى النساء، غيـــرة لا أدري لها تفسيـرًا غير أنها جبلة غرســها الله في نفوسهن، وإن تعددت الأمكنة أو اختلفت الأزمان.

يجلـس إبراهيم على مقربة من أمه وأخواته، بعدما ألقى إليهن التحية، وقد بدت عليـــه الرغبــة في الحديــث ثم تلجلجت الكلمات على شفتيه، كأنه كان يريد أن يقـول شيئًا ثم كــف عنه، فانتبهــت الأم إلى ذلك وبادرته في حنان وسكينة:

- مالك يا إبراهيم .. يا ولدي إن كترت عليك هموم الشقا وزعها على الأيام.

ابتسم وهو يتوسد الحائط برأسه بعد أن شبك كفيه في بعضهما، مسندًا رأسه عليهما، ورد في سكينة وشرود خاطر:

- لا هم ولا حاجة ..

وانطلــق يفكــر هاجعًا إلى نفسه، يحاجيها في خفــوت متسائل:

- ترى، هل ما أنا فيه الآن شيء عادي ؟!
أم هي أشياء مجهولة تخبئها الأقدار ؟!

طفت عليه جيوش من الذكريات المتثاقلة ..

- لأول مرة لا أستطيع تدبير أمر نفسي، وأكون كسولًا لأقصى درجات الكسل.

تدارك الأمر في لمحة سريعة خاطفة، وندت عنه تنهيدة ثم راح يستنشق ما وسعه من نقي الهواء بأنفاس ملأت أوداجه بالاطمئنان، بعدها رنا إلى الجميع في ارتياح، وكأن كل ما طفق على خاطره ما هو إلا هواجس وسحائب ريب لا توشك إلا أن تنقشع مع إشراق الحياة.

سمعت الأم غرابًا ينعق أشد ما يكون النعيق، فنظرت إليه بضيق نفس، ثم بادرت قائلة في تشاؤم:

- خير يا غراب .. إن كان شر خده وانجر.

ضحك الابن في نفسه وبعد تردد عدل من جلسته وفي هدوء وثقة رفع حاجبيه في اهتمام والتفت إلى أمه قائلًا بجدية:

- بصي .. أنا نويت أفتح قهوة في البلد.

انتبهت الأم وجال في نفسها التهكم لكنها آثرت إخفاءَه وبدت مبتسمة ابتسامة تحدوها الدهشة العميقة من كلام

ابنها الذي لم يسعها معه إلا أن تأخذ شيئًا من التؤدة، فلم تفصح عن تهكمها، وقالت بلهجة ملؤها الاستغراب:

- قهوة إيه يا صبر عمري !!

انتشى إبراهيم وأظهر الحماس في مواصلة الحديث، ثم قال وهو يحدق في أمه بما يظهر الحرص على الرغبة في إقناعها:

- ما هي مش قهوة كبيرة يعني .. دي هتكون زي غرزة بسيطة في أول البلد.

أنصتت الأم في اهتمام لكلام ابنها ولاحت في عينيها بعض الأماني المنغزلة بخيوط المودة، وهي تحاول أن تستوعب ما وسعها استيعابه من هذا الكلام، غير أن شعور غريب بالرهبة وعدم الاطمئنان بدأ يسري داخلها، لا تدري له تفسير.

أخرجها الابن من أمانيها التي تعذب لها، ومن الشعور الذي بدأ يزايلها وهي لا تعلم له سببًا:

- متخافيش، ما أنا كمان منيش وحدي، معايا عرفة صاحبي، أنت عارفاه.

ازدادت رهبتها وعلا وجيف قلبها، ثم شهقت شهقة عالية، وضربت على صدرها قائلة في استهجان:

- عرفة مين ؟!

شنة ولد حكم الله !!

من زمان يا ولدي وأنا نفسي تبعد عن الفاشل ده، وبقول مسيـر الزمن يكـون كفيل ويبعدك عنـــه، تقوم أنت عـــاوز تشاركه، ده كل الناس في البلد بتتقي شره.

سقت عليك النبي يا ولدي .. احنا مش قده !

برقـــت عينا إبراهيم وقد أومأ برأسه هازئًا من الكـلام، وآب إلى نفسه في شيء من الشـــرود الممتـزج بعـدم الرضا:

- أبعد عنه .. هههه ..

أبعد عنه إزاي وهو اللي خد بيدي في وقت أنا كنت محتاج له فيه.

ثم ندت عنه نظرة مؤتلقة غيب فيها استهزائه، ووشـت بأن كل السحب القاتمة والأوجاع القاسيـة التي مـــر بها وأظلمت حياته وحياة أسرته آن لها أن ترحل إلى غيـر رجعة.

مضى كل شيء في سبيله والصديقان كان لهما ما أرادا في استكمال القهوة أو الغرزة كما يحلو لهما ولروادها أن ينعتوها، والتي نمت مع الوقت وازداد زبائنها.

مرت الأيام في طريقها وتغيرت أشياء كثيرة، حيث بدت معالم الثراء والنعمة على الصديقين، بأماراتها الرغدة والتي تروق أمانيها لأهل القرية، غير أنهم في ذات الوقت تساورهم الدهشة والشك حد الغصة من رغد العيش حد التبذير الذي حل على الصديقين دون أن يمت لاطمئنان العقول بسبب، والصديقان لا يكترثان بما يختلج في أنفس الناس الحائرة من ريب تجاههما أو محاكٍ تتناقل صداها في تغامز وتلامز عنهما، فالقرية لا ينفصم الحديث فيها إلا عن الصديقين وغرزتهما التي ما هي إلا وكر مساوئ تبعث الشر الذي يأسف له الجميع، فهما قد اجتمعا على بيع الهوى وملذات تغييب العقول التي توهم بالسعادة لحظة الإغواء، وهكذا يكون هوى الأنفس التي لا وازع يحركها سوى الغواية والأهواء الجامحة.

دأب الصديقان على المسير قدمًا في سعيهما الرامي إلى الثراء الرغيد والعيش حد الترف جراء ما عكفوا على بيعه من بواعث الغواية المحرمة، ومقومات تمييع العقول حد إفسادها دون محاسب أو رقيب، بيد أن الحيطة عندهما جعلا لها من أسباب الحذر ما يكفل لهما تحقيق الأمان.

يبتسم عرفة في شيء من دواعي النشوة وقد تمددت أسارير الزهو لديه وهو يمد أطراف الحديث في ود

تصاحبه الغلظة أحيانًا مع أحد زبائنه الذي اعتاد أن يأتي وقد بسط الليل رداءَه كيما يبتاع كغيره لذة انبساط عقله وغمار سعادته وصفو كيف مزاجه والتي تجلب له وهم نسيان أوجاعه ورحيل نكد الحياة، أو حتى التقاط النفس بعيدًا عن فساد دخائلها ولو لساعات في غرزة الصديقين.

وقف ذلك الشخص منتظرًا عرفة بعد أن قبض منه ثمن مسرة الليلة وانبساط العقل وتكييف المزاج غير أن طول الانتظار قد أثقله، فجنح به التفكير في شيء من اللوم على نفسه، قائلًا في عتاب:

- كيف وصلت بك الحال لأن تكون مثل الشجرة الهشة التي تحركها الرياح كيفما تشاء ؟!
بتضيع مالك، وتهلك نفسك، وتخسر رضا أمك المسكينة !
أنت الخسران في النهاية !

ثم بدا عليه التأثر حتى وكأن الدموع تغالبه حزينًا على حاله التي رمى بها في حضن الصديقين وضياع نفسه من غير رجعة، وأطرق خاطره إلى أمه في لوعة تبثها الرغبة في إظهار مكنون حبه لها ولأخوته:

- كم آسيتك يا أمي مستسلمًا للشيطان وإغوائه ؟!

على حيـن أنت بقلبـك العطـــوف تتحمليـن كل حماقاتي ..

ثم آب به التفكير يوم دبَّ الخلاف بينه وبينها .. طالبته بحصيلة عمل قام به ريثما تنفقها على متطلبات الحياة، قائلة له في أمل وتودد:

- هات يا ضنايا اللي معاك .. ربنا يهديك، ما أنت عارف البير وغطاه ..

أشاح بوجهه عنها في غير سرور بكلامها فهو قد عقد النية والعزم على أن الليلة ليلة تمكين الرأس من الكيف و(روقان المـزاج) ولا منـاص من ذلك مهما كانـت العواقب، مما دعـا الأم إلى أنها لم تطـق صبـرًا لذلك، فاحتدم النقاش بينهما ..

فأربد وجهها حنقًا وغيظًا، وقبَّحته سابة إياه بأقبح ما يقع على سمعه من ألقاب ..

- طبازا يا معفن .. والله كبرت وعرفت تبجح وترفع صوتك على أمك اللي ربتك يا كلب يا ابن ستين كلب.

اشتاط غضبًا من أثر السب على سمعه، فكال إليها ما وسعـه من تبكيت شاتم وسب مقذع، ثم ألفى نفسـه تنحرف لأول مرة إلى ضربها فطالت يده جسدها، مما

دفع الأم في شيء من حرقة القلب وعدم التوقع لفعل ابنها لأن تصرخ صرخة أحدثت دويًا هتك هجوع المكان الباهت، ولم تلبس طويلًا حتى طردته من الدار قائلة في حرقة وجفاء:

- ما هو ده اللي كان ناقص يا ردي يا سافل!
بعد صبري وتعبي اللي تعبته عليك يا اسماعين تشتمني وتمد يدك عليا ؟!
روح يا ابن بطني قلبي وربي غضبانين عليك!
عليه العوض ومنه العوض ..
قالوا للغراب ارمي بلحة، قال كلُّه والنصيب، قالوا له ده النصيب بين إيديك ..
يا غلبي يااني !!

ثم شهقت شهقة أخذت بعدها في البكاء، وإسماعيل يلحظ دموعها أثناء خروجه دون أن يبالي بذلك، أو ينطق ببنت شفة، أو يترك نفسه للتأثر.

ثم حاد به الخاطر لحظة أخرى من لحظات التأنيب، وذلك عندما حل عليه الليل بطول إظلامه حائرًا بعد أن طردته أمه إلى غير رجعة، إذ أين سيبيت ليلته؟ وكيف سيجعل أمه تقبل عليه في تسامح ولين جانب؟!

أخذ يرنو ببصره إلى كل حيلة تعصمه من وطأة الشقوة وعناء الليل الدامس، فكل القرية على غير استثناء هجع

سكانها إلى مضاجعهم بعد أن كد أكثرهم الجهد والتعب، ثم هداه التفكير إلى أن ينسل متخفيًا في غفلة من أمه الغاضبة عليه، وليكن من الأمر ما يكن ..

انسل إلى الدار في خفة، بيد أن أمه التي يتملكها الغضب لم يغمض لها جفن فلاحظت وقع أقدامه، فعاجلها دافع الحنق عليه، فهمت متثاقلة إليه لكن دافع الأمومة وخشية ارتفاع الصوت ليلًا هدئا من وطأة حمية الغضب الحانق لديها فأبت أن تطرده، أو حتى تؤنبه في وقت كهذا ..

فسكنت من حمية غضبها وجعلت تبدو وكأنها نائمة، ثم أطرقت سمعها إليه، فتنامى إلى سمعها صوته الخافت وهو يؤنب نفسه أشد ما يكون التأنيب:

- إيه اللي أنا عملته ده ؟ يا ريت مت قبل أمد يدي عليها !

ثم ساورته الدموع فرقرقت مقائيها ..

أحست الأم بولدها فندت عنها آهة استبان الابن منها استيقاظ أمه فدب في قلبه الوجل وسرت في أعماقه الرهبة، غير أنها نهضت إليه في همة متباطئة خشية إخافته بعد أن استشعرت بصيص الأمل في تقويمه ..

ثم فرض الهـدوء والصمـت سطوتهما على كـل شيء حولهما، لحظات ألهبت كل زوايا المكان.

نهض إسماعيل من ثقل الانتظار وحديثه العاتب لنفسه على قدوم عرفة، وهو يربت على كتفه قائلًا:

- خد يا عم وادعيلي، بس المرة الجاية شد حيلك شويتين معانا، الحساب القديم لسه على حاله.

أومأ إسماعيل برأسه في إذعان وأخذ نفسًا عميقًا ملأ به رئتيه، ثم عاتب عرفة على التأخير في هوادة من غير حنق، بعدها ارتكن جانبًا وقد أغمض عينه مودعًا نفسه نشوة الانبساط.

أيها القارئ الحبيـب، يؤكد لي أنك على وقـع من الأحداث، بيد أن شيئًا من العجلة يروق لنا ويدفعنا إلى رضوان الذي يصارع الحياة بأوجاعها وخطوبها أيما مصارعة وكأنها تريد أن تذقه من مرارتها ما أذاقته لغيره من أناسي كثير وإن اختلف سبب إذاقتها، فقد أقعده التعب، وهو أفرط في اهتمامه بنفسه وكأن الحياة فقدت قيمتها وبيرقها لديه، بل صار يطلب الموت بدلًا عن سجن الحياة الذليل الذي يقبع فيه، أما زوجتـــه عواطف فهي تسهر على راحته وإراحتـــه في غيـــر ضجر، وابناه لم يسكن لهما فؤاد ألمًا على حالة أبيهما

التي تنغص في كدر صفو ارتياح هذه الأســـرة التي كانت تنعم بحياة وادعة عذبة ..

تهرع الزوجـة إليه في عطف وإشفاق، وتبادله النظرات وهو في فراشــه يتأوه وقد لفحـت قلبه حالة من العتــاب على بئس صنيعه معها في الأيام الخوالي وهي تتوســل له الشفــاء وتستـدعي على شفتيـها كـل ما يأتــي علــى خاطرها من مأثور الرقية الذي توارثته عن الأســلاف، ثم تهم قائلة في إشفاق حان:

- يا عامر يا ولدي، أبوك تعبان قوي ..

ثم تصمت في ألم وحزن وقد أوعزت إليها حالة زوجها النكباء أن ترنو إلى ابنها والدموع تطفو من عينيها ولا تستطيع إخفائها:

- قـوم يا ولدي هـات لأبوك الدكتــور، انهـارده هو تعبان أكتــر من أي يوم ..

يرد الابن في لهجة حزينة:

- إن شــاء الله يا أمي .. مين عــارف يمكن ربــك يغير الحال ويمن عليه بالشفـاء ويرفــع عنه كــل آلامه .. بس أنت ادعي له .

قالت الأم وهي ترفع يدها إلى السماء في إخلاص:

- ربنا يسمع منك يا ولدي ويديه الصحة، هو احنا لينا حد غيره .

أحس الابن بحالة من الجهد وثقل الهم تملكته فرقرقت عيناه، لكنه آثر أن يكظم دمعهما عن الظهور حتى لا يزيد من ألم أمه التي ترمقه بعينيها العاطفتين، ثم خلد إلى نفسه يفكر في شرود:

- كيف لي أن أصنع ؟

كل السبل قد ضاقت أمامي، أبي الذي كان في سعة من العيش ورحابة من الصحة والعافية قد غدا على حافة الهلاك، وجهه المشرب بحمرة قد انطفأ إلى حد الشحوب وبروز عظامه، وجسده الممتلئ قد فقد خيلاؤه، وأمي المسكينة قد احمرت عيناها من شدة الحزن والألم، لن أنسى حديثها الخافت:

"كيف تكون الحياة بدونك يا رضوان يا رفيق العمر؟! ربي خذ من عمري وأعطه إياه، يا رب تمم شفاه".

ظنت أمي أنها لم يسمعها أحد، قد سمعتها فاهتز وجيب قلبي لصدق كلامها، ثم ابتسمتُ لحظتئذ ابتسامةً شاحبة وأبديت عجبًا دهيش:

"يا لك يا أمي من زوجة طيبة وفية أيما وفاء، ويالك يا أبي من زوج قاس في تعاملك معها أيما قسوة" !!
لكن هـذه هي الدنيا وحكمـة الله في خلقـه، لولا بسـاطتها وطيبتـها وانكسارها ما كان لهذه الـدار من استقـرار ولا استـدام لهذه الأسـرة سعـادة أو هناء.

ثم أخذت الأيام سبيلها مع رضوان وأسرته دون أن تحقق آمالهم أو تستجيب الأقدار لهم، فلم تلفح عواطفهم الظامئة إشراقـات البهجـة ولا روائـح الارتياح، حيث رضوان لم يتم له البرء والشفاء بل ظل على حـالتـه لا يعرف جسده طريقًا للتنعم بلذة راحة البدن من آلامه، أو القلب من أوجاعه، ولم تعـرف عينـاه غير الترقب والانتظار.

وعلى أثـر ذلك غدا عامر تحـت وطـأة المسئوليـة وتصريف الأمور، ولا حيلـة له إلا التسليم ريثما يخلع ذاته من سيطرة الهموم التي تفضي به إلى نكد الحيـاة وتنغيص مسراتها، فلاحت في وجهه الرغبـة لأن يشد من أزر نفسه ويتعامل في تحد مع الحياة حتى يتماثل أبوه للشفاء ويستعيد قوته.

يخرج عندما يشقشق الفجر بأنواره حيث الشمـس لم تستكمـل شروقـها بعد، وعيناه تبوحان بخوفه وحزنه

معًا، متمثلاً أباه الذي كان يأخـــذه ذلك التوقيــت في الطواف بالزراعات سعيدًا بذلك الفعل، قائلًا في انتشاء:

- إن في البكــور بركــة في الرزق، ونشـــاط في الجسم، ونسيمًا صافيًا قلما تجده في باقي اليوم.

اعتاد عامر أن يفعل ذلك الفعل يوميًا، ظانًا بأن ذلك لربما يكون مدعاة لسرور أبيه واطمئنانه.

وفي ذات يوم من أيام الصيف كان نسيمًا نديًا أخذ يهفو كيما يرطــب حرارة الجو القائظة، ويحلو لكل آنس أن يروق بتلك النسمات لا سيما عامر الذي شاقه الإرهــاق والتعــب، فرجـع قافلًا من تجــواله تائه الأفكــار، وفي طريقه تعلق ناظراه بسعيدة وكأنه يمر عليها لأول مرة لكن هذه المرة تختلف عن كل مرة فأخذ يسير ببطء، لاحظ ابنتها صابرة إلى جوارها - أعلم عزيزي القارئ في حـــدود اليقيــن أن الأحــداث لم تنســك من تكون صابرة ؟!

استوقفـــه جمــال ملامحها فحــدق فيها في ثبــات، رأى سكون البراءة في عينيها الخضــراوين فنظر إليها من خلف وسامته وهي تراقب تلك النظرات الثاقبة الملفتة، فسـرت في أعماقها رغبة عـــارمة لأن تداعـــب تلــك الوسامة والرشاقة اللتين تبديان في غير غــرور، تقــدم إليهما فلما اقترب حادث أمها في اطمئنان:

- أخبار الخضار إيه النهاردة يا حجة سعيدة ..

بيد أن عينيه عالقتيـن بصابرة في غير حياء، فحدجتـه بنظرة جافة وكأنها زاهدة فيه لكن نبضات قلبها تحادثها في تمني:

- آه لو يكون من حدي ونصيبي ..
بس هو يرضي بي ؟!

استوقفها الخاطر لحظات ثم قالت بعدها:

- متحلميش ده حتى إبراهيم بيكرهه وبيكره أبوه سم .... يالا ما أنا عارفه نصيبي، وأهي أيام وبتعدي وكأننا فيها بهايم، نصيبنا فيها إما الفقر أو التعاسة.

أما عامر فهو ما زال يراقب حدقاتها، ولفت انتبـاهه المعلق بها أن خاطرها أفضى بها إلى خيال سارح فظن أنها صرفت نظرها عنه، فداعبها بكلمة باسمة سُرَّتْ بها في غير اهتمام، والأم ضجرة من ذلك الفعل حانقة على تلك النظرات، فهمت في اكتراث شديد لأن تجعل عامر يبرح المكان حتى لا تتحرك الأشجان والهموم التي كفل الزمن بنسيانها إلى حد كبير، خاصة إذا أقبل ابنها إبراهيم ووجد عامر أمامه فهي تعلم يقينًا أن صدر ابنها سيضيق ذرعًا ويؤنبها حتى ولو بالنظرة، فآثرت أن تنهي تواجده في غير تساهل قائلة:

- خلاص يا أستاذ عامر، سألت على عايز تسأل عنه، وانت يا بت يا صابرة قومي ادخلي جوه شوفي اللي وراكي.

حدجها عامر في خجل ثم رفع حاجبيه ووسعت شفتيه ابتسامة مصطنعة وهمَّ منصرفًا لكن عينيه لا يفارقهما التعلق بالبنت بينما هي أيضًا تنظر إليه من طرف خفي وفي عينيها نظرة متحدية كتلك التي تعتلي الوجوه الخجلة وكأنها تتمناه ألا يترك المكان، ثم أغمضت عينيها بعد أن ولى قافلًا موليًا ظهره وهي تزداد شغفًا به، فنظرت إليها أمها وقالت لها في توبيخ:

- أنا قلت إيه ..
مش قلت قومي شوفي اللي وراكي!

فدب النشاط والإقبال في صابرة على غير رغبة وقلبها قد اعترته عواطف وأحاسيس الرغبة والنشوة بعد أن خاطب عينيها لأول مرة حلم جميل انطلق بها في فضاء فسيح يملأه الانبهار والإعجاب والبهجة والأحلام والمشاعر الرقيقة العذبة، فهي أحست من خلال لغة الأعين أن عامر أبدى إعجابًا بها.

ثم هل إبراهيم عليهما، فلما رأته صابرة استقر في أعماقها أن باب الأمل الذي كانت تنشده قد تبدد وأن

حظها لن يبلغها السعادة التي تأملها، فلا مهرب من القسمة والنصيب.

ذهب إبراهيم في الحديث مع أمه التي استقبلته بحفاوة يحدوها الحنان والدعاء، بعدها مضى في طريقه قاصدًا غرزته، قائلًا في نفسه:

- يا مسهل الحال يا معين.

قال ذلك ريثما يبدو مستعدًا في الشروع لعمل اليوم الذي شأنه شأن كل يوم من الأيام التي ينصاع فيها وراء رفيقه عرفة أو شنة بلا أدنى ارتباك ولا تأنيب وفي حماس شديد، وكأنه كلب يلوذ بالصمت والإذعان مستجيبًا لحظة رؤية صاحبه أو ندائه عليه، فلم يعد بالإمكان أن ينفك عن عرفة الذي سيطر عليه أيما سيطرة وهو لا يدري حدود الإصابة أو الخطأ في ذلك، فتتأهب نفسه دائمًا على السير قدمًا وراء أفكاره وتطلعاته في وعي منه أو في غير وعي.

حتى جلسات اللهو وتطلعات النفس الزائفة التي تغري بالمجون وفساد الغاية والحيد عن حدود الاستقامة، تجدهما في ذلك سواء، حيث كثيرًا ما زامل الرفيق رفيقه في جلسات تنصرف إليها نفس عرفة، وتغري إبراهيم بسبب من حب الاستطلاع، فاعتادا سويًا الذهاب مترددين على بيت كلثوم أو (لواحظ فرفشة)

كما يحب أن يناديها عرفة بين الحين والآخر في خلسة دون عبأ منهما بالشائعات، مختلسين أوقاتًا في بيتها المنتحي تطرفًا ليس بالجم عن مساكن القرية، وهي يروق لها ذلك إذ لا رقيب ولا حسيب لها على أفعالها فزوجها قد أصابه اعورار في عينيه فبات كالكفيف لا يقوى على العمل وقد غمرت وجهه التجاعيد العميقة، وهي أربعينية يانعة طرية تسافر الأعين تجاه نهديها العارمين، وردفيها المكتنزين في حدود الاستدارة، وتقطن معها أختها عفاف التي حدا بها اليتم لأن تكون مكفولة في بيت أختها دون أن يعارضها عارض من عوارض الضجر أو إحساس ناشئ من نواشئ الفتور والسأم.

على حين استقبل عرفة رفيقه إبراهيم في غرزتهما بترحيب بالغ وضحكة وسعت وجهه كله، فبادله إبراهيم الابتسام من غير تكلف، ثم قال له في غرابة:

- بتضحك ليه ... هو في حاجة تضحك ؟!

أجابه عرفة بعد أن لمعت في عينيه سنة من التؤدة والتمهل:

- لا أبدًا يا صاحبي ... كل ما في الأمر إني أنا عاوز أفاتحك في موضوع وكلي أمل إنك متكسفنيش.

برقت عينا إبراهيم وفرغ فاه قليلًا ثم هم قائلًا:

- قول عاوز إيه ..

فاستطرد عرفة ما يدور في خلده من كلام قائلًا:

- بص يا إبراهيم أنا وأنت صحاب من فترة كبيرة، ومن غير لف ولا دوران أنا عاوز أناسبك ... بصراحة أنا معجب بأختك صابرة .

وجم إبراهيم أولًا ثم ابتسم ابتسامة متكلفة دون أن يند عنه غضب أو فرح، ثم قال في هدوء:

- يا عرفة، أنا وأنت عارفين بعض زين، طريقنا كان واحد، يعني مش معرفة يومين .. ده عمر وعشرة، أنت راجل جدع، بس هي الدنيا اللي بتشكل الناس على هواها، لكن الموضوع ده يا صاحبي محتاج تفكير ومشورة .. ولا أنت إيه رأيك ؟

قال عرفة متعجلًا:

- أكيد أكيد براحتك ومعاك المهل.

قضى إبراهيم وقته يتجول في التفكير والتدبر للأمر، جاهدًا ريثما يتيقن الصواب في طلب عرفة حتى آذن به الوقت إلى الذهاب إلى مسكنه.

تأمل لحظات الضيق والشقاء والدعة التي جمعته بعرفة، ثم نحا به التفكير إلى أمه كيف ستستقبل نبأ طلب عرفة أخته صابرة للزواج، وهي التي تمقته ولا يسرها رؤياه.

توقع أنها ستثور ثائرتها على رغم منها، منطلقة في فضاء التذكير بتحملها أمر هؤلاء البنات .. تخيلها وهي تقول في عصبية:

- هن وصية أبيك ولن أتركهن للأهواء.

وبعد أن أشعر نفسه بالرضا والثبات، أقبل على أمه ودنا منها خطوتين غير أنه ظل صامتًا برهة من الوقت، والأم تنظر إليه في ترقب وحيرة، ثم قطع الصمت بقوله:

- بصي يا أم إبراهيم ...

أَسَرَّها قوله فانتبهت إليه، واستطرد هو الكلام في حرص:

- أنت عارفة إن سترة البنات أهم حاجة في الدنيا.

فما كان من الأم إلا أن اعتدلت وزادت من انتباهها وأصغت إليه مجيبة في انشراح:

- أيوه طبعًا، سترتهم بالدنيا وما فيها.

تحمس إبراهيم الكلام وقال وهو ساكن الحراك:

- في عريس كلمني على صابرة، هو صاحبي وأنا شايف أنه كويس.

قالت الأم في غبطة وسرور لم تبديهما، لكنهما أضاءا وجهها:

- يا مسهل يا رب .. ربنا يفرح كل الناس ويستر كل الولايا.

ثم أعقبت متسائلة في لهفة:

- قول لي مين هو العريس ده اللي بتقول عليه صاحبك ؟

أجابها إبراهيم وهو يتململ مطرقًا نظره إليها:

- أنت عارفاه كويس ....

ثم سكت لحظة قال بعدها:

- العريس هو عرفة.

انسكب الخوف والغضب داخل الأم، وبدا عليها التجهم لكنها تصنعت الهدوء في غير ثورة ولا حنق، ثم همت قائلة وهي تحاول أن تتمالك الكلام، خيفة أن ينفض الحديث بينها وبين ابنها على غير رغبة منها:

- كويس .. بس أنت شايف إن عرفة ده ينفع زوج لأختك ونستأمنوه عليها.

اطمأن إبراهيم لعدم ثورة أمه، فزايله شعور باستطابة الحديث وفق ما يروم له، ثم قال لها في تودد:

- أنت عارفة إنه غير الأول، واستقام واتعدل حاله وبعديـن هو شريكي وبيكسـب كويس، وشارينا وشاري البت كمان.

شردت الأم برهة من الوقت في مستقبل ابنتها وتذكرت تلك النظرات التي تبادلتها ابنتها مع عامر بن رضوان البعتلي فركز في خاطرها الخوف كل الخوف عليـــها وعلى أسرتها حتى لا يكون قدرها من التعاسة والهم كقدرها هي قائلة في نفسها:

- وماله عرفة .. !
مش راجل وبيكسب وهيقدر يحميها من متاعب الزمن وأهو أحسن من غيره كتير.

بيد أنها أسرت ذلك في نفسها ولم تبده، وهمت قائلة لابنها في هدوء:

- الموضوع عاوز شوية تفكير وكمان لازم ناخدوا رأي أختك.

تألق وجه إبراهيم بالبسمة وسرت في قلبه الطمأنينة والانبساط وقال لها:

- المهم رأيك أنت، أما صابرة فأكيد هتوافق طول ما احنا موافقين .. وبعدين من امتى كان للبنات رأي ؟!

أحس إبراهيم أن عبئًا ثقيلًا قد أزيح عن كاهله، أو كأن غمة عظيمة قد انقشعت من على قلبه بعد أن لاح في عينيه موافقة الأم على تلك الزيجة.

أقبل إبراهيم على عرفة كالمعتاد، غير أنه هذه المرة غلبه الابتسام الذي جعل عرفة تأسره حيوية الظفر، فغشي قلبه الاطمئنان وكأن مخاوفه التي كانت تراوده قد زالت أمام إقبال إبراهيم الباسم، ثم عاجله في شيء من اللهفة:

- طمنني .. إيه الأخبار ؟

أجابه إبراهيم بما يشي باستقرار الأمر ومن ثَمَّ الموافقة ستكون حتمية، قائلًا وقد تصطنع الجد في الكلام:

- كل شيء تمام .. بس الأمر ما يسلمش من وقت بسيط نرتب فيه الحال، ده جواز يا صاحبي ..

هز عرفة رأسه وقلبه يرقص فرحًا قائلًا:

- وأنا جاهز في أي وقت يا أبونسب.

ثم أخذا يسترسلان في الحديث حتى خلصا إلى ضرورة الاحتفاء هذه الليلة بسهرة أنس وتفاريح تعدل المزاج عند لواحظ نعنشة.

وصل الرفيقان بيت كلثوم أو لواحظ نعنشة، فطرق عرفة الباب على موعد معها، فاستقبلتهما في ترحيب وسرور وهما دلفا منتشيين جراء ترحيب كلثوم بهما، ثم همت كلثوم قائلة في إعجاب وهي ترمي نظرها نحو إبراهيم:

- آنستوا ونورتوا يا حبايبنا.

راق لإبراهيم هذا الاهتمام والترحيب، فسيطر عليه الزهو، وإعجاب النفس، ثم شيء من الحنين، فأخذ نفسًا عميقًا ملأ به رئتيه، وجعل نظره يجوس بنظرات فاحصة في المكان الذي تحيطه معالم الوضاعة ورقة العيش، فتسائل في عجل يفصح عن مكنون الرغبة:

- يا كلثوم أمال فين عفاف؟ مش قاعدة ولا إيه؟

رنت كلثوم لعرفة، ثم ابتسمت قائلة:

- موجودة ياخويا .. موجودة.

وبالتفاتة مقصودة ند عنها صوت رفيع يزينه ما يشبه الترنم بالغناء:

- يامحلا الحبايب اللي زرونا ... أقدامهم سعد وهنا لما آتونا.

ثم ضحكت في تغنج وارتفع صوتها بالنداء على أختها عفاف، فأقبلت عفاف عليهم في تؤدة ورزانة، وهي تتمايل الهوينى من المشي، وقد برز شيء من مفاتنها من أسفل هندامها الضيق، فخلب ذلك عقل إبراهيم وتعلقت عيناه أول ما تعلقت بثدييها المشرئبين، ومع دورانها حرك ردفاها اللذان يهتزان مع تمايلها نوازع الشهوة عند كلا الرفيقين.

همس عرفة في أذن إبراهيم وهو يغمز له بطرف عينه اليسرى، قائلًا في خبس:

- إيه رأيك في القمر ده ؟

ابتلع إبراهيم سيلان ريقه، ثم أجاب رفيقه وهو يضغط على شفته السفلى من فرط الإعجاب هازًا رأسه هزة لا يستبينها سواه:

- أمال أنا جاي ليه ؟
وبعدين عينك ياعم الحج، دي تخصني أنا وبس.

ضحك عرفة قائلًا:

- سايبهالك اشبع بيها.

فلكزه إبراهيم في كتفه، فصمت عرفة في قهقهة انزعج لها إبراهيم.

التقت عين إبراهيم بعين عفاف فلاحظت أنه يكاد ينهش جسدها بعينيه، فرفعت ناظريها إلى الأفق في دلال وكأنها اعتراها شيء من الحياء، ثم ما لبست أن تقدمت نحوه في اهتمام، فأصاب إبراهيم شيء من الحماس فنادمها في استئناس حتى تم له ولرفيقه الوقت حد الرضا والارتياح فرجعا قافلين بعد انقضاء الخلوة التي راقت لأعماقهما فرحين غمار السعادة بتلك اللحظات.

ثم جعل رفيقا الليلة يتبادلان الحديث، مسترجعين نشوة تلك اللحظات الجميلة التي قضياها في بيت كلثوم، ثم أخذ عرفة يداعب رفيقه قائلًا:

- بس اسكت يا جدع .. البت عفاف دي فرسة وعايزالها خيّال.

فقال إبراهيم في فخر وزهو:

- ومين خيّالها غيري !!
اسمع يا صاحبي .. احنا تقريبًا هنبقى نسايب ..

فأطرق عرفة أذنيه في اهتمام شديد قائلًا:

- إن شاء الله يا إبراهيم، ولا أقول لك إن شاء الله يا أبو نسب، هههههه ..

فقال إبراهيم في جد:

- اسمعني بس يا عرفة .. خلينا في المفيد.

ثم سكت قليلًا، وأتبع قائلًا:

- بصراحة أنا عايز أتجوز عفاف ..

ذهل عرفة للحظات، ثم قال في ضحكة خفيفة يتلبسها الاستغراب:

- يخرب بيتك أبوك .. إيه الكلام اللي بتقوله ده ؟!

فقال عرفة في جدية:

- زي مسمعت .. البت عاجباني وداخلة مزاجي، وهتزوجها مهما يكون، بس أنا كل اللي عايزه منك إنك تمشي لي في الموضوع ده.

شرد عرفة قليلًا ثم قال:

- إذا كان على كلثوم وأختها أمرهم هين، دول يتمنوا يا صاحبي، هما هيلاقوا فين زيك، أهم حاجة تبقى أنت مقتنع، وبعدين في مشكلة تانية ..

ثم سكت هنيهة أردف بعدها قائلًا:

- أمك يا صاحبي هتوافق إزاي ؟

انتاب إبراهيم طرفًا من الصمت، وكأنه يتدبر الأمـر، ثم قال في هدوء:

- ماليكش صالح أنت .. كل حاجة وليها حل.

انصـاع إبراهيم وراء عوالـق الشهـوة الجامحـة التي سيطرت عليه والإعجاب الباهر الذي غشي قلبـه، وكأن نارًا أضرمت داخله، فدفعتـه نحـو عفاف دون تردد في بادئ الأمر أو عقل يراجعه، ومضى به الوقت يتلمس كيف يفاتح أمه في هذا الموضوع، وأخذ يحادث ذاته:

- أعلم أن زواجي من عفـاف قد يكـون مجهـول العواقب، ومحفوفًا بالمتاعب الكثيـرة، لكن القلب تعلق بها .. سأتزوجها مهما حصل.

أقبل على أمه وهو يحاذر ما ستبديه من غضب غايـة الحذر، وجدها متكئة على جانبها الأيمن اتكاءة خفيفة تتطلع إلى النجوم في ليلة قد أضاء القمر ظلامها، وهي قد امتلأت عيناها برقيق من الدمـع، ويند عنها صـوت خفيض لكنه مسموع، تتلمس فيه الدعاء قائلة:

- يا رب في ليلـة التـلات اللي بتتحـل فيها كـل الضيقات استرها معانا يا رب ...

يا رب لا زرعة ولا بستان غيرك، مترمينا في ضيق ولا تشمت فينا عدو ولا حبيب يا رب ..

ثم سمعت وقع أقدام ابنها فجففت ترقرق دمعها، وكفت عن الدعاء، فألقى عليها إبراهيم السلام وهو يحتضن الأمل في عدم الصدام معها، الصدام الذي لا تطيقه هي وهو يجاهد نفسه ألا ينساق خلف شوائب خاطره لحظة الغضب.

رفعت الأم رأسها قليلًا نحوه، وردت عليه سلامه لكنها تجأر بالشكوى والألم، داخلها خوف ما تخبئه الأقدار دون أن تبدي ذلك، ثم همت قائلة:

- اجلس يا إبراهيم، أنت ولدي وتعلم أنك وأخواتك كل ما أرجوه من الدنيا .. انتظرتك رجلًا وها أنت ذا قد كبرت.

رنا إليها إبراهيم في اهتمام أضاع نشوة اشتهاء محظيته عفاف، ثم مضت الأم في استطراد الكلام:

- أنا كلمت أختك في موضوع زواجها من عرفة ده، ولا بتقولوا شنة .. فرفضت كل الرفض.

فهمَّ إبراهيم متوعدًا إياها بالويل والثبور، لكن الأم هدأت من حدة كلامه، ومن توعده الغاضب قائلة:

- استنى وخذ لنفسك المهل، أنا شددت عليها أكثر ما تكون الشدة، فارتضت به زوجًا بعد أن أخذت وقتًا في المناهدة وحينًا في البكاء.

تلقى إبراهيم الأمر باطمئنان قلب، وتسربلت نفسه بالبهجة التي ارتسمت على وجهه فتيقنتها الأم، ثم خيم عليهما صمت أطبق على زوايا المكان، قطعه إبراهيم بلهجة تغلفها الاستكانة، وشيء من الجدية:

- أنا كمان قررت أتزوج .. إيه رأيك ؟

ائتلق وجه الأم بالسرور، وكست قلبها الفرحة الغامرة، قائلة في انشراح:

- منى عيني يا إبراهيم إني أشوفك عريس وأفرح بيك.

ثم ارتكز في خاطرها تساؤل أبدت به دون انتظار:

- بس مين العروسة ؟
شكلك جمعتها يا حْبَيِّبْ.

أجابها إبراهيم وقد أسدل على مقاله عدم الاطمئنان لما سيند عنها من جواب:

- هتزوج عفاف بت حسين أبو صبرة.

اقتضـــب جبين الأم، وضربت على صـــدرها قائلة في فـزع:

- عفاف مين .. أخت كلثوم ؟!

قال إبراهيم وهو يحيد عينيه عنها:

- أيوه هي .. أنا بحبها من فترة وهتزوجها.

سكتت الأم وكأن وقع المفاجأة جعلها تهيم في الحيـرة ولا تستطيع أن تدبر أمرها، ثم صاحت في زجر يسوقه النصـح:

- دي لا هي من توبـنا ولا من قيمتنا يا ولـدي، دي لا عيلة ولا أصـل، دي سيرتها هي وأختها على كل لسان يا إبراهيم.

ضحك إبراهيم ضحكة آسفة أخفاها في نفسه بيد أن الأم استشعرتها، فسرت قشعريرة هزت قلبها وكأنها علمت ما يدور في خلد ابنها من ذكرى بغيضة مضت، ثم قال إبراهيم قاطعًا هاجس الأم:

- أنا قلت لك بحبها، وياريت متوقفيش في طريق سعادتي ..

ثم سكت وكأنه يتوسلها ..

- ياريت توافقي ...

كسا وجه الأم الاستياء، ثم شردت هنيهة تحادث نفسها:

- هل ستبقي العمر كله يا حزينة رهينة لحظات الذل والهم والنكد ؟!

ثم انتبهت إلى ابنها بنظرة يائسة قائلة:

- بص يا إبراهيم يا ولدي كل اللي أقدر أقوله لك إنك لازم تقدّر خطـواتك قبل متخطيها عشـان متكونش عاقبتك الحسرة والندامة، أنت خـلاص مبقتش صغير، وأنا أملكش إلا إني أدعي لك أنت وإخواتك البنـات اللي هم المفروض في حمـاك، كل أمنياتي في الحياة أنكم تكونوا سعداء، روح يا إبراهيم ربنا يسعد أيامك ..

بنى إبراهيم بزوجـه عفاف، وكذا بنى عرفة بزوجـه صابرة، وانصرمت الأيام تعقبها الشهور، وقد صـرف الدهر بأفاعيله الأحداث، وإبراهيم لا يألـو جهـدًا في استرضاء زوجه عفاف ذلك الاسترضـاء الذي يحط من كرامته في نظر أمه التي يزداد ضيقها وحنقها يومًا بعد يوم .

فزوجتـه عفاف ملكت نفسـه إلى الحـد الذي أصبـح لها مستكينًا كالأسير الذي يتبع قائده وهو لا يعبأ بذلك، فقـد تولاه شعور بالمحبة والأمان بينه وبين زوجته، شعـور تعجب له الأم عجبًا غريبًا يثير الغضب ويدفع الزوجة

إلى التمادي كل التمادي معه في اختيال وزهو، وكأن حبه لها نقطة ضعف تتكيء عليها، خاصة أنها تنـزوي به في حجرتهما المترامية في آخر الدار، والتي لها باب مستقل في ركن يبعد عن أعين الأم والأخوات، أما الأم فلا يرتاح لها بال ولا يستقر لها يقين، فتثور ثائرتها كلما رأتها تخالط أحدًا من الجيـرة أو تحـادث أحدًا من الناس خاصة مزاحها المائع مع عرفة زوج ابنتها الذي كثيرًا ما أوعزت ابنتها صابرة بالشكـوى الحانقـة منه وكأنه وحش افترس أحلامها البكر، مما جعـل المآسـي تهيج داخل نفس الأم، وتألم أشد الألم لسوء حظ ابنتها.

رأتهما يومًا وهو يتفرس وجهها وجسدها بقـوة، وكأنه ينهشها رغبة بعينيه، فدنت منهما وأطرقت السمـع وهو يحادثها مبديًا الإعجاب:

- بيتخيل لي يا عفاف أنك غير سعيدة في حياتـك، وجدير بمثلك أن تحيا حياة الأميرات.

فردت عليـه في أسى، وكأن كلامـه التقي مع وجعـها فأبـرأه:

- ومين سمعـك يا عرفـة، ياريت صاحبك يبقـى زيـك.

ابتسم عرفـة ثم تبادل معها النظرات الراغبـة التي لم يثنيهما عنها إلا رؤياهما لسعيـدة وقد ضربت وجهـها

بالغضب، وارتفعت حماستها بالتوبيخ لزوجة ابنها وبالتأنيب لزوج ابنتها الذي ضحك ضحكة فاترة وهم بالانصراف، مواعدًا عفاف بنظراته متى سنحت الفرصة إلى ذلك سبيل.

قدم إبراهيم على أمه وهي تنكس رأسها إلى الأرض ممسكة بعود من الحطب اليابس، تخط به التراب أمامها دون اهتمام أو حرص واعٍ لما تفعل، حيث دارت في نفسها الهواجس المقلقة وأوهى الشيطان إليها بتلابيسه الكائدة، وهي لا تستهين بذلك فكل ما يدور حولها من فعل زوجة الابن ينذر بالشر، ولا يسلمها إلا لذلك التفكير.

أقبل إبراهيم عليها فرفعت رأسها قليلًا، بادلها التحية ثم همَّ منصرفًا فاستوقفته كحائرة لاذت بمن سيطمئن حيرتها ويثبت فؤادها، قائلة في تأنٍ يحمل في طياته الشكوى، بيد أنه تسرب لديه شعور أنها ستجأر بالشكوى من زوجه، فأبى في نفسه ذلك وأصغى سمعه إليها في غير اهتمام لما ستقول:

- اسمع يا إبراهيم يا ولدي ...
العقل بيقول إن الواحد يكون بصير على نفسه وعلى بيته، وأنا كبرت وملا راسي الشيب، وأديني بنقول ياللا السلام وما باقي إلا حسن الختام، انتبه كويس للي بيدور حواليك، خلّي

بالك مع مراتك، خلّي عينـــك معها، وشد عليـها زيـن.

رمى إبراهيم أمه بنظرة واجمة بعد أن افتر وجهه وهو يتظاهر بفهمه لما بدر عنها من كلام، غيـــر أن نفســه تقنعه أشد الاقتناع بأن كلامها ما هو إلا تحريـض منها على زوجـــه جراء ما تكنـه لها من بغـض وكراهيـة، بعدها ابتســم ابتســامة لا معنى لها لدى الأم، فتحـاشت النظر إليه، ثم ودعها وانصـرف وقد وسع خطاه شـاقًا طريقــه نحــو زوجـــه، دخل عليها فألفـاها أمام المـرآة الصغيـرة وقد هذبـت حاجبيها وأكحلت عينيها وبيـــدها المشط تسرح شعرها الفاحم معجبة بجمالها وهي ترنو هازة كتفيها في ملاحة ودلال:

- رايحــة على فيــن يا غندورة .. يسعـد مســاك يا حلوة يا صغنطوطة.

فتح عليها الباب فأحـدث دخوله المفاجئ انتباهة راعتها وقطعت عليها خيالها وصوتها المترنم، وسيطـــر عليها الضيق بقدومه، قائلة في قضوب وجه:

- مش تقول احم ولا دستور لما تدخل !

وجــم إبراهيم قليـلًا من استقبـــالها، فلما رأتـــه كذلـك تصنعت ابتسامة زائفة، وهمت من مكـانها وأقبلت عليه في دلال.

تأملها إبراهيم وكأنه يراها لأول مرة، فانسكبت عليه عواطف الرغبة، فضمها إليه حتى وكأنه يعتصرها بين ذراعيه، غير أن الوقت لم يدم طويلًا إذ سرعان ما أفرغ شهوته، فخار اعتصاره لها، وبدا عليه التوتر والانكسار، وكتمت هي آهاتها وفرط انتشائها داخلها، وأحجمت عنه في بغض ورغبة يجتمعان، أما هو فقد استلقى تائهًا، لا تستطيع عيناه أن تلتقيا مع عيني زوجته.

لم تكن الليلة ولا غيرها مشرقة لا لإبراهيم ولا لزوجه عفاف التي أخذت تنغص عليه تواجده في البيت، مما حدا به أن يستأثر جل وقته في القهوة بين الزبائن والأصدقاء، خاصة مع حلول المساء، ولوقت ليس باليسير.

أما عرفة فأخذ يتردد على بيت إبراهيم في وجوده وعدم وجوده، وعفاف تميل نفسها لتواجده، يناغيها وتناغيه، تمنحه الرضا ويمنحها عذوبة الكلام.

رأته سعيدة يومًا وهو خارج من حجرات ابنها من الباب الخلفي الذي يتخذه إبراهيم مخرجًا ومدخلًا له ولزوجه، رأته وقد اعتراه عرق يتقاطر على جبينه، فنظرت إليه بعينين يتطاير منهما الشرر، وآلت على نفسها أن تراقب الأمر بحيطة واهتمام، حيث عاودتها مكائد الشيطان وهواجسه المذلة، فلم يغمض لها جفن

طوال الليل، وكأن نارًا قد استعرت داخلها لا تجد سبيلًا لإطفائها إلا بإزالة ما خلفتـــه تلك المكـــائد الهاجسة عن خـــاطرها.

مضى الوقت حتى غاصت الشمس في الأفق، وبدا الليل ناسجًا خيـــوطه في السماء معلنًا عن قدومـــه، ساعتـــها غادر إبراهيم بيته على موعد مع رفيقه وصهـــره عرفة في قهوتهما.

التقـــاه في حرارة وترحاب، وأخـــذا معظم الوقـــت في التسامر والتلاسن مع الزبائن الكثـــر في أنس واطمئنان حتى رحـــل الوقـــت بالجميـــع إلى ساعات الليل الأولى، فهمس عرفة لإبراهيم متلهفًا بما يشـــي بأنه سيأوى إلى داره من وقع الإرهـــاق والتعب حيث طمرته الرغبة في الخلود إلى الراحة إذا أمكنه ذلك، ولم يقف الرفيـــق أمام رغبة رفيقه فأجابه بالموافقة، كيف لا وهو صهره ؟!

ولى عرفة ظهره المكان وبعد أن غاب عن الأعيـــن أخذ يهرول مندسًا بين آفاق الظلام وهو يحاذر أن يراه أحد.

أقبـــل على مقصـــده مدفـــوعًا بما طغى على نفســـه مـــن الإحساس بالرغبة والتواعـــــد، فدخل خفيـــة حتى ستـــر الظـــلام دخوله ..استقبلتـــه في اهتمام، فوقع ناظراه أول ما وقعا على جسدها البض في حدود الإثارة ...

سال لعابه لحظتئذ، رأى صدرها الناهد وقد طفا ظهورًا من مرقده مقتسمًا بفسحة فصلت ضفتيه .. انفتحت نوافذ الشهوة أكثر ما تنفتح، ثم ندت عنها ضحكة خافتة بعثها غنجها وتجلت معها دلائل الرغبة والرضا.

جعل يتحسس كتفيها وظهرها العاري، ثم أخذها بين أحضانه في استسلام وإذعان تامين ..

ضمها إلى صدره المشعر بعد أن نحى ثيابه في غير توانٍ .. جرت قشعريرة حركت أوج الشهوة داخلهما، خاصة بعد أن التقى صدره بنهديها المنتصبين ..

أمست في غاية الاستسلام له، مما دفع براكين الشهوة لديه ولديها إلى القمة، ثم ندت عنهما آهات النشوة، وهما يتفرسان وجه بعضيهما بعينين تغمضان تارة وتنفتحان أخرى ... قبلات حارة وأنفاس تختلط بأنفاس، غير عابئين بالوقت.

وفجأة وعلى غير توقع من الناعمين في الشهوة، اندفع باب الحجرة الذي يظنان أنه يستر لهما اختلاس وقت اللذة .. انفتح على صوت تأوهاتهما المتسربلة في ملكوت النشوة، ورعشة الجسد ..

خرجت صرخاتها ماضية غاضبة، تمزق أحشاء الليل الساتر لهذين العشيقين اللذين غواهما الشيطان دون أن يشعرا بالذنب أو حرمة العرض.

دخلت عليهما في سرعة لا تدانيها سرعة، دخلت وهي تحمل شقاء الأيام، وقهر السنين، والرغبة في جلد كل خطايا الزمن .. لم تمهلهما من الوقت طويلًا، إذ في عجالة قررت أن تضع حدًا لهذه الجريمة الفاضحة، التي ألهبت عواطف مكبوتة لديها حد الاستخذاء، طالما وخزت قلبها وخزًا أليمًا، وفي حركة ماضية دون مهل، أخرجت سكينًا كانت تحملها .. غرستها في قلب عرفة دون توقع منه، ذهلت معها عشيقته عفاف التي سرعان ما حاولت الفرار، غير أن سعيدة لم تمهلها إلى ذلك سبيلًا.

تدافعا .. علا بينهما التناحر والصراخ والصياح، حتى أمكنت سعيدة يديها من عنقها بقوة الحق ووأد الخطيئة، لم تتركها إلا جثة هامدة، ثم خيم الصمت الكئيب قليلًا، إلى أن بدا الإقبال من كل حدب على بيت سعيدة ريثما يستطلع المقبلون أمر تلك الصرخات التي وصلت بصداها مدى بعيدًا، حتى أن دوي صداها اخترق أذني رضوان البعتلي الذي ما يزال طريحًا، لا يقوى على الحركة ولا شيء من الكلام، ينتظر داعي الحق، أو يمهله الحق إلى أجل غير معلوم.

أقبل إبراهيم وهو مذهول، ويطمر وجهه الفتور والاصفرار، ويغلب على جسده الانتفاض كما لو أنه طير يتقلب منتفضًا من ألم الذبح.

رأى أول ما رأى أمه وعلى يديها أثر الدمـــاء، وعرفة لا تنبعث منه حركة، عاري البدن، ملقًى على ظهره، وسكيـــن منغرســـة في صدره، ما زال الدم ينهمـــل من جرحه حتى يكاد يغرق المكان.

ثم رنا إلى الجـــانب الآخـــر، فوجد زوجـــه عفاف منكفأة على الأرض في ثياب نومها الفاتنـــة التي تنحســـر عن جسد أبيض يلهب الأحاسيس ويدفع الجسد لغوايته، غير أنها قد بدت جـــاحظة العيـــن، وفمهما لا يستطيـــع أن يستوعب لسانها، فبدا اللسان خارج الفم.

اشتدت وقدة الحرقة على قلبه، والألم الذاهل في نفسه، ثم أخذ نظره يجول في كل مكان دون أن ينبس ببنت شفة .. بدا وكأنه كمن يودع المكان في نظرة أخيرة.

الموقف في غاية التعبير، لا يحتاج إلى تفسير.
تحاشى النظـــر إلى أمـــه، ثم تركـــها ساهمة ورأسها بين ذراعيها، أناس كثير يلتفون حولها، يتغامزون في أسًى بيِّن.

مد إبراهيم الخطى مسرعًا وفق ما خطر على باله، بيد أنه لا يدري إلى أين ستقله قدماه .. حتى وصل في غير وعى إلى الترعة الكبيرة التي ما زالت تحاديها أشجـــار الصفصاف .. رمقها في يأس بنظرة حاسرة، تذكر في حينها أخاه طنطاوي، بكت عيناه في مرارة وأخذ الدمع

ينهمل منهما كالسيل، ثم همَّ قائلًا في عذاب نفس وتأنيب للضمير:

- لقد افتقدتك يا ابن أمي !
تعال انظر أمك، هي اليوم تطهِّر أنفسنا، تغسل عارنا ومذلة الأيام.
صَدَقْتِ يا أمي "من يزرع الشر لا يجني إلا الحسرة والندامة" .. وها أنا ذا بين الشقاء ولوعة الندم !

ثم رفع ناظريه إلى السماء بعين وقلب يحملان الدعاء:

- رحماك يا رب .. رحماك يا رب ..

بعد ذلك أخذ يتقدم بخطى متباطئة، لكنها في غير مهل، وبدون تفكير تقدم نحو ماء الترعة في المكان الذي يتجنبه المترددون عليها .. المكان الذي يحوي الحفرة التي تشبه البئر ويخافها الصبية لحظة استمتاعهم بماء الترعة مع وقظة الصيف .. الحفرة التي أسكنت جسد أخيه طنطاوي إلى مستقره الأخير.

جعل يتقدم في غير توانٍ، وهو يتلفت في أسًى عميق إلى شجرة الصفصاف، لكن هذه المرة لن يشهده أحد، لن يراقبه شيء، فطائر اليمام قد رحل، لم يعد له هديل.

❀❀

تمت

من إصدارات مؤسسة زهرة كُتّاب

الشعر والخاطرة :

- لابس وش : علاء أحمد
- فعشقت مجددًا : أحمد لملوم
- امرؤ الهلس : إسماعيل علي
- إنسان فالصو : محمد الشحات
- فأنت تفاح أخضر : عبد الرحمن حميدة
- ضل ونور : لمياء عامر
- تراتيل عاشقة : شاهندة الزيات
- ثورة عاشق لم تكتمل : محمد أبو ذكري
- وجع الحنين : هيام الجمل
- أبجدية حب : كواعب البراهمي
- لك الحب : إيمان زايط
- حب في زمن حزين : السيد حسان
- فراغ عاطفي : على نمر
- ضل ونور : لمياء عامر
- هلاليات : عبد الرحمن الهلالي
- الشتاء الأخير : آية على الشاعر
- مني لك : عبلة موسى، خالد غازي

- سكتة حب : عبلة موسى
- خلطة مطبعية : إيهاب الكيلاني
- خارج دوائر الانتظار : أحمد رامي عبدالله
- ١/٢ كدر : عثمان عبدالمنعم
- لسه! : رفيدا حسن
- كلمات تروي حكايات : محمد العدلي

الرواية والقصة القصيرة :

- استربتيز : منة الله رأفت
- الصامتون تحت الأرض : هبة حمدي
- المواجهة الملعونة : محمود شاهين
- العذاب الحلو : سالي غانم
- للأحلام اسم آخر لا نعرفه : محمد صلاح المصري
- طائر في الظلام : إيمان عبد الخالق
- هن : ولاء بيومي
- رجل ضد العالم : سمير زكي
- (HIV) من مذكرات مثلي : علاء أحمد
- للخطايا ثمن : محمد أبو خلف الله الجعفري

الكتب المجمعة :

- تيليجرام : شعر
- سيلفي : شعر
- سيجا : شعر

- صف تاني : شعر
- قلم رصاص : شعر
- ترابزين : شعر
- بارانويا : شعر
- بيانولا : قصة قصيرة
- ألوان : قصة قصيرة
- نيكتوفيليا : خواطر
- إنسانوبيكيا : شعر وخاطرة وقصة قصيرة

المقال والدراسات :

- مداد في حب الوطن : د.أحمد السعدي
- يا سكر : كريم عمرو، ياسمين التمامي
- كيميا الحب : سارة حسين
- لا مؤاخذة : أحمد مرسي
- مدن مصر المحروسة (حتمية الموضع، إمكانية الزمان) : على محمود العبادي
- شرائع محرمة : كواعب البراهمي

لطلب إصدارات مؤسسة زحمة كُتّاب للثقافة والنشر، زوروا مقرها في : ١٥ شارع السباق، مول المريلاند، مصر الجديدة، أو زوروا موقعها الإليكتروني لمعرفة أماكـن التوزيـع على مستوى الجمهـورية، والدول العربية.

للتواصل :

www.za7ma-kotab.com

www.facebook.com/za7ma

www.facebook.com/za7makotab

za7ma-kotab@hotmail.com

٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦

مؤسسة زحمة كتاب للثقافة والنشر

زحمة كُتّاب .. القدرة قرار !